البَابُ الثَّالِثُ

الرسائل

أ- تمهيد

في الجزء الرابع من تاريخ الأدب العربي - وعنوانُه: النثرُ في عصر النبوة والخلافة الراشدة - كنا قد فصَّلنا القول في معاني الرسائل والترسُّل والرسول والمرسِل والمرسَل إليه. ومُجْمَلُ ما فصَّلنا أن الألفاظ المشتقة من «الراء والسين واللام» تشتركُ في الدلالة على الانبعاث الهيّن الليّن، وأن هذا الاشتراك قد يبلغ حدَّ الترادف في بعض الألفاظ كدلالة الرسول والرسالة على معنى واحد.

وذكرنا ثَمَّ أن مرور الزمن طوَّر معنى الرسائل وأضاف إليها أكثر من دلالة، ومن هذه الدلالات إطلاقُها على الكتاب الكامل من الجلدة إلى الجلدة، كرسائل الجاحظ ورسائل إخوان الصفاء، ورسائل أبي العلاء المعري.

وأشرنا في أثناء ذلك الحديث إلى الجذور التي استقى منها هذا الفنُّ الأدبي نسغَ الحياة فقلنا: إن العصر الجاهليَّ على الرغم من شيوع البداوة والأمية فيه عرف الرسائلَ وتمرَّس بإرسالها. وإن أعراب الجاهلية كانوا يتراسلون بالألسنة والرُّسُل لا بالأقلام والقراطيس، كانوا يبعثون برسائلهم مع أمناء أذكياء، ينتجبونهم ليبلِّغوا مَنْ يرسلونهم إليهم ما يريدون تبليغه، وإن أهل الحواضر طوَّروا هذا الفنّ فحوَّلوه من المنطق المسموع إلى المكتوب المقروء.

ثم ذكرنا أن الأوضاع السياسية والإدارية التي أحدثتها دولة الإسلام جعلت

obeikandl.com

الرسائل وسيلةً من وسائل التواصل بين النبيّ ﷺ وملوك الدول المجاورة، أو بين خلفائه وولاتهم. وشفعنا كلامنا بالكلام على رسوم الرسائل، ومن هذه الرسوم البدءُ بالبسملة والحمدلة والتحية، وتسميةُ المرسِل والمرسَل إليه، وبعد ذلك يُكْتَب الغرضُ من الرسالة، وتُجعل التحيةُ التي بُدئت بها نهايةً لها. ثم تُذيَّل بالتاريخ واسم الكاتب، وتُختم بخاتم المرسِلِ، إمعاناً في التوثيق.

ب- ما أضيف إلى رسوم الرسائل في العصر الأموي

التزم كُتَّابُ العصر الأموي ما أورثهم عصرُ النبوة والخلافة الراشدة من رسوم، ذكرناها مجملةً في الفقرة السابقة، ومفصلةً في رابع الأجزاء من هذه السلسلة. وإذا كانوا قد طوَّروا ما ورثوا فإن تطويرهم يُعَدُّ تكملة لرسوم ألفوها، لا ابتكاراً لجديدة نسخوا بها القديمة.

ذكر الطبري وهو يؤرِّخ ما حدث سنة ٦٠هـ أن «معاوية كان أوَّلَ من اتَّخذ ديوانَ الخاتم، وكان سبب ذلك أن معاوية أمر لعمرو بن الزبير في معونته وقضاء دينه بمئة ألف درهم، وكتب بذلك إلى زياد بن سمية، وهو على العراق. ففضَّ عمرو الكتاب وصيَّرَ المئة مئتين. فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية... فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم، وحَزَمَ الكُتُبَ، ولم تكن تُحْزَم»[(١)]. وأنت تعلم من دراستك السيرة النبوية أن النبي ﷺ اتخذ من الفِضَّة خاتماً نُقِش فيه «محمد رسول الله»، وأن رسائله إلى الملوك كانت تختم به. فمعاوية طوَّر الخَتْم من نقش إلى إغلاق. أو جعل الختم قُفْلاً للرسالة ليحميها من العبث.

وفي أحداث سنة ٦٧هـ سَرَد الطبريُّ خبراً يدلّ على أن ختم الرسالة سار خطوةً أخرى، وخلاصةُ الخبر[(٢)] أن رجلاً شوهدَ في مسجد الكوفة الأعظم، وقد أخرج كتاباً كان يحمله، وفي أسفله طابع من رصاص، وهو موجَّهٌ من وصيّ آل محمد إلى المختار بن أبي عبيد الثقفي. ومعنى ذلك أن عبث العابثين برسائل الأمراء فرض على أولي الأمر أن يُمعنوا في التحوُّط، فطوّروا رسم الختم من نقش يوثّق الرسالة، إلى غَلَق يصونها من العبث.

(١) تاريخ الطبري ٦/ ١٨٤.
(٢) تاريخ الطبري ٧/ ١٥٩.

ومن الرسوم التي ذهب بعضُ الباحثين المحدثين إلى أنها تطوَّرت بدايةَ العصر الأموي ترتيبُ اسمي المرسِل والمرسَل إليه. فقد ذكر د. محمد ماهر حمادة أن تطوراً هاماً حدث في عهد معاوية، وجوهر هذا التطور الهام أن يبدأ كاتب الرسالة باسم المرسل إليه إذا كان أعلى طبقة من المرسِل، فقال[١]:

«ففي عهده - يعني عهد معاوية - بدأ الولاةُ والناس يفتتحون رسائلهم إلى الخليفة، وإلى من هو أعلى منهم باسمه، ثم يتبعونه باسم المرسِل: إلى عبد الله معاوية أمير المؤمنين من فلان بن فلان. ويقال: إن أوَّلَ من استنَّ ذلك عبدُ الله بن عمر الذي عرضت له حاجة إلى معاوية، فأرسل إليه يقول: إلى عبد الله معاوية أمير المؤمنين من عبد الله بن عمر».

إن الحكم القطعي في مثل هذه الرسوم الفنية يحتاجُ إلى إحصاء واستقصاء. وليس ممّا يشرِّف البحث أن يتسرّع صاحبُه، فيسم القديمَ بالجدَّة، والتقليدَ بالابتكار. ففي عصر الراشدين رسائل كثيرة بدأها مرسلوها باسم الخليفة، منها رسالةٌ من عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب[٢]، وأخرى من معاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب.

وأصحُّ من ذلك أن يقال: عَرَف عصرُ النبوة والخلافة الراشدة ضربيْنِ من هذا الرسم: ضرباً يبدأُ فيه المُرْسِل باسمه، وضرباً يبدأ فيه باسم المرسَل إليه. وترجيحُ أحد الضربين على الآخر مرتبطٌ بالمكانة لا بالعصر، وبما عُرف به العربُ من الأدب. ثم نهج كتَّابُ العصر الأموي النهجَ نفسه بلا تطويرٍ ولا تغيير.

إن استمرار العمل بالرسوم القديمة لم يمنع كتاب الرسائل من إضافة رسوم أخرى إلى ما ورثوا، وأبرزُ ما أضافوا الدعاءُ للمرسل إليه في مطلع الرسالة. ويُخَيَّل إلينا أن الكتّاب اقتبسوا هذا الرسم من الخطباء. جاء فيما رُوي[٣] من خطب رشَّحت يزيد بن معاوية للخلافة أن عبد الرحمن بن عثمان الثقفي، وثور بن معن السلمي، وعبد الله بن عصام الأشعري، والأحنف بن قيس دعوا

(١) الوثائق السياسية والإدارية/ ٣٥.
(٢) انظر الوثائق السياسية/ محمد حميد الله/ ٤٨٩-٤٩٠.
(٣) انظر: جمهرة خطب العرب ٢/ ٢٣٧.

في مطالع خطبهم لمعاوية بقولهم: «أصلح الله أمير المؤمنين» وزاد على هذا الدعاء الضحاك بن قيس الفهري، وعبد الله بن مسعدة الفزاري، فقالا: «أصلح الله أمير المؤمنين، وأَمْتَع به». أمَّا الدعاء الذي شاع في الرسائل فهو: أصلحه الله، وأكرمه الله.

وفي عهد الوليد بن عبد الملك الذي شاع فيه تضخيم البناء وتفخيمه بدأت الرسائل تميل إلى التضخيم والتفخيم، فجُدِّدت القراطيسُ، ودُبِّجت الرسائل، وطال التحميد والتمجيد، وعظَّم الكتاب الخلفاء والأمراء، وآثروا الإطناب على الإيجاز. ولم يستطع عمر بن عبد العزيز أن يقمع هذه الظاهرة، إذْ طغى تأثيرها واستفحل بعد وفاته، وبلغ مداه في زمن مروان بن محمد، حتى قيل - والقولُ بالأسطورة أشبهُ وإن أورده القلقشندي -: إن بعضَ الكتّاب كتَبَ عن الخليفة كتاباً يَعْدِلُ وِقْرَ جَمَل!! وذكر ابن عساكر[1] أن «عمرو بن نافع كاتب عبيد الله بن زياد أوّل من أطال في الكتب».

وسواءٌ أكانت هذه الرسوم موروثةً أم مُسْتحدثة، فإن اجتماعَ بعضها إلى بعض في العصر الأموي عمل على تطوير النثر العربي، وعلى ظهور ديوانِ الرسائل الذي تَحدَّثنا عنه في مقدمة هذا الكتاب، وهيأَ الأسباب لظهور نمط من النثر جديد، وهو الكتابةُ الرسميةُ. أو الرسائل الديوانيةُ. فكيف ظهر هذا النمط من النثر؟ ومَنْ أشهرُ أعلامه في العصر الأمويّ؟ وما أبرزُ معالمه؟

جـ- معالم ازدهار الرسائل الديوانية

إن انتقال الخلافة من الحجاز إلى الشام نقل حاضرة الدولة العربية من مجاورة البداوة إلى مجاورة الحضارة، فاحتك العرب بالفرس والروم، واطلعوا على طرائق الممالك القديمة في الإدارة، فصنعوا الدواوين، ونظموا شؤون الاتصال والتراسل بين الخليفة والملوك الأجانب من ناحية، وبين الخليفة والعمال من ناحية ثانية.

ومع ازدهار الدولة، وبعد اتساعها وامتدادها من الصين في الشرق، إلى جبال البرانس في الغرب ألقيت على كتاب الرسائل والخلفاء والولاة تبعات

(١) مختصر تاريخ دمشق ٨/ ٣٧٥.

ثقال، حملتهم على أن يطوِّروا ديوان الرسائل، وفن الترسّل، وأساليب الكتابة، وتجلّى هذا التطور في معالم أبرزها:

١- تعريب الدواوين

قال الأستاذ حسن إبراهيم حسن[١]: «كان ديوان الخراج يُكْتَب بالفارسية والرومية إلى عهد عبد الملك بن مروان، فنقل عبدُ الملك ديوان فارس والشام إلى العربية، ونقل ابنُه الوليد ديوان مصر إلى العربية».

قد تعترض - واعتراضُك سائغٌ - فتقول: ما علاقة ديوان الرسائل بتعريب الدواوين الأخرى؟ وهل كان أمراءُ الدولة الأموية يكتبون رسائلهم إلى الخليفة من فارس بالبهلوية، ومن مصر بالهيروغلوفية قبل التعريب؟

يجيبُك عن بعض ما سألت د. يوسف العش، فيقول[٢]: «الدواوين المعروفة في عصر عبد الملك ثلاثة: ديوان الخراج، وديوان العطاء، وديوان الرسائل. ولكلٍّ منها مهمَّتُه واختصاصُه. أمَّا ديوانُ الرسائل فلم يُحْدِثْ فيه شيئاً، اللهم إلا تنظيمه، وتسلسلَ الأعمال، وضبطَه».

فديوانُ الرسائل، كما يُفْهم من النص السابق كان خالصَ العروبة، وحظُّه من التطوير كان في الإدارة لا في التعريب، قال د. يوسف العشّ[٣]: «وقد وَضَع - يعني عبد الملك - في ديوان الرسائل موظفين عارفين، وعلى رأسهم مستشارُه الخاصُّ ليستشيره في الرسائل التي يُرسلها إلى الأقطار، والتي تَرِدُ منها».

ويغلبُ على ظننا أن هذا المستشار - وشوقي ضيف[٤] يلقِّبُه رئيس الكتاب - هو سليمانُ بن سعد الخشني بالولاء [ت: ١٠٥هـ]. قال الزركلي في ترجمته: «هو أوّلُ مَنْ نقل الدواوين من الرومية إلى العربية، وأولُ مسلم وَلِيَ الدواوين كلَّها في العصر الأموي».

إذا قطعنا بصحة هذا الظن قلنا: إن ديوان الرسائل لم يكنْ في مَعْزِلٍ عن حركة التعريب، وإنْ كان عربيّاً، إذْ أصاب نصيباً من عناية الخشني ورعايته،

---

(١) تاريخ الإسلام ١/ ٣٦٥.
(٢) الدولة الأموية/ ٢٣٠.
(٣) الدولة الأموية/ ٢٣٠.
(٤) العصر الإسلامي/ ٤٦٨.

وهذا النصيبُ تجلَّى فيمن اختارهم الخشني من كُتَّاب ذوي بيان وإتقان، استطاعوا أن يترجموا بأقلامهم ما كان يدور في رأس الخليفة وصدره.

ونستطيعُ أن نقول: إن ديوان الرسائل أصاب حظّاً آخر من التعريب، تجلَّى في إلغاء الطِّراز الأجنبيّ وابتكار طرازٍ عربيّ. ونعني بالطراز السِّمةَ الرسمية التي كانت توسم بها القراطيسُ المستوردة من مصر. فقد دأبَ صُنَّاع القراطيس من ورق البردي على أن يحلّوا قراطيسهم بعبارات أجنبية لم يَرْضَ عنها عبد الملك حينما تُرجمت له، فأمر بتغييرها. قال حسن إبراهيم حسن[1]:

«لمَّا فتح المسلمون بلادَ الفرس والروم، واتَّسَع ملكُهم اقتدَوْا بالأكاسرة والقياصرة. واتَّخذوا الطراز عن الروم، لكنَّهم لم يستحسنوا اتخاذَ الصور لتحريمها في الإسلام. واستعاضوا عنها بكتابة أسمائهم وعبارات أخرى، تجري مَجْرى الفأل والدعاء. وظلُّوا على ذلك إلى أيام عبد الملك، فنقله إلى العربية، وبدأ بالقراطيس، وكانت تُنْسَج بمصر، وتُنْقَش عليها عبارات مسيحية. وقد أمر عبد الملك بترجمة هذه العبارات إلى العربية، فلمَّا عَرَف معناها قال: ما أغلظَ هذا في أمر الدين والإسلام!! وكتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان عامله على مصر لإبطال هذا الطراز، وأن يستبدل بتلك العبارات إحدى الشهادتين، ففعل».

٢- الارتقاء بفن الترسُّل

كان الخلفاء والأمراء حِراصاً أشدَّ الحرص على أن يتخيَّروا كُتَّابَ الرسائل من ذوي المواهب، وأصحاب الملكات، وممَّن أصابوا ثقافةً واسعة، فشفعوا الطبعَ بالصنعة، والقدرةَ بالخبرة، وعكفوا على تدبيج الرسائل. وكان الكُتَّابُ أنفسهم يتنافسون في التحبير والتجويد ليشغلوا هذه الوظائف الرفيعة، وتنافسهم ارتقى بالكتابة الديوانية.

وسنة التطور تقضي بأنَّ الارتقاءَ لم يكنْ طفرةً طفرها فن الترسُّل في عهد عبد الملك وحده، وإنما أنجزته أجيال متعاقبة من الكتّاب، وأن كل جيل كان يرقى بالإنشاء الرسمي درجةً، لكي يبزَّ سلَفَه، ويعلِّم خلَفَه، وأن كل كاتب من كلّ جيل كان يسعى ما وسِعه السعيُ في هذا المُسْتَبَق الأدبيّ الصاخب، إلى أن

(١) تاريخ الإسلام ١/٣٦٦.

يكون السابقَ المجلّي، لعلَّه أن يرقى به فنه من الكتابة للصغار إلى الكتابة للكبار.

قال عبد الرحمن بن الأشعث لكاتبه ابن القَرِّيَّة حين ثار على الحجّاج[١]: «إني أريد أن أكتب للحجاج كتاباً مُسجَّعاً، أعرِّفه فيه سوءَ فعاله، وأبصِّره قبح سريرته». ومغزى هذا القول أن الكتابة الرسمية جاوزت مرحلةَ التعبير عن الغرض إلى مرحلة التأنُّق في الصياغة. ولك أن تتوقع أنَّ الكاتب اهتبَل السانحة، لا ليرضيَ ابن الأشعث، وحسبُ؛ بل ليلفت إليه أنظار القراء عسى أن يرقى به بيانه إلى منصب مرموق.

وأَدلُّ ما يدلُّك على أن ما زعمناه صحيحٌ أو يقارب الصحة أن اللغوي يحيى بن يعمر [ت: ١٢٩هـ] - وكان فصيحاً من تلاميذ أبي الأسود الدؤلي - رفعه بيانُه من صِغار الكتبة إلى كبارهم. كان يكتب ليزيد بن المهلّب، والي خراسان للحجَّاج. فلما انتصر يزيدُ على ملك الترك في «باذغيس» أمر ابنَ يعمر أن يُبشِّر الحجاج بالنصر، فأغربَ ابنُ يعمر، وتخيَّر من الألفاظ البدوية الجاسية ما يُرضي الحجَّاج، فقال[٢]:

«إنا لقينا العدوَّ، فمنحنا الله أكتافَهم، فقتلْنا طائفةً، وأسرنا طائفة، ولحقتْ طائفةٌ بعرائر[٣] الأودية، وأَهْضام[٤] الغِيضان[٥]. وبتْنا بعرعرة الجبال[٦]، وبات العدوُّ بحضيضه».

فأُعْجب الحجّاجُ بالرسالة، وهو لا يعرف كاتبها، لكنه أنكر أن تكون من إملاء يزيد، فقال: «ما يزيد بأبي عُذْرة هذا الكلام. فقيل له: إن معه يحيى بن يعمر، فكتب إلى يزيد أن يُشخصه إليه. فلمَّا أتاه سأله عن مولده، فقال: الأهواز، فسأله: أنى لك هذه الفصاحة؟ قال: أخذتها عن أبي».

---

(١) الأخبار الطوال/ ٣١٨.
(٢) الوثائق السياسية/ ٣٥٧، والبيان والتبيين ١/ ٣٧٧.
(٣) أسافلها.
(٤) مداخلها.
(٥) ج غائط وهو الحائط ذو الشجر.
(٦) أعاليها.

لك أن تستنبط من هذه الحادثة العارضة أنَّ أمراء بني أمية - وجلُّهم من العرب الأقحاح الفصاح - عُنوا غايةَ العناية بفنّ الترسُّل، وأنه كان لكلّ أمير منهم عارفةٌ، لا يُنكر فضلُها على الارتقاء بالكتابة الديوانية، وأن فيهم من الغَيْرة على العربية ما في الخلفاء أنفسهم، حتى إنك لتحارُ أيُّ الأَفْرِقاء الثلاثة: الخلفاء، والأمراءِ، والكتّاب كان أحرص من سواه، وأشدَّ حمية، وأصدق نيةً وعزيمةً على التجويد.

فمعاويةُ بن أبي سفيان وخلفُه يزيدُ استكتبا عبيدَ الله بن أَوْس الغسَّاني، فأحسنَ فيما كتب، وروى الجهشياريُّ رسالة بليغة موجزة من رسائله. وعبيدُ الله بن زياد استكتب عمرَو بن نافع، فانتقل بالترسُّل من الإيجاز إلى الإطناب. وعبدُ الملك بن مروان عهد برسائله إلى رَوْح بن زِنباع الجُذاميّ، فأجاد، وشهد له عبد الملك بقوله: «إنه فارسيّ الكتابة» ولعلَّه أراد بما قال أن يصف أسلوبه بالصنعة البديعة. والحجّاجُ بن يوسف جعل ديوانَ الرسائل في العراق مدرسة يتقاطر إليها الكتّاب، يتعلَّمون فيها ويعلّمون. وهشامُ بن عبد الملك ولَّى مولاه سالماً ديوانَ الرسائل فغدا الديوان معهداً يُنشَّأُ فيه كبار الكتاب، وأبرزُهم عبد الحميد الكاتب.

مَنْ ينظرْ في الرسائل التي صدرت عن ديوان هشام يقعْ على ما أنجز كُتَّاب هذا الديوان من الارتقاء بفن الترسُّل، تجلَّى هذا الارتقاء بملامح وَسَمتْ الكتابة الديوانية، وأبرزُها رصانةُ اللغة، وتخيُّر المفردات، والازدواجُ، والتصوير البياني، والأناقةُ في الصياغة، والإطالة في عرض الأفكار، وترادُف الجمل المتعددة على المعنى الواحد، والاقتباس من القرآن الكريم، والاستعانةُ بمنطق أرسطو، والقدرةُ على سوق الحجج والأدلة التي تبرهن على صحة الشيء ونقيضِه. ولعلَّ ذلك يعودُ إلى أن سالماً الذي أشرف على الديوان كان يُحسن اليونانية، ويَثْقَفُ ثقافَتَها، ويقبسُ من فلسفتها وأدبها.

٣- كثرة الكُتَّاب في ديوان الرسائل

المَعْلَمُ الثالث من المعالم التي تدلُّ على أن فنَّ الترسُّل ازدهر في العصر الأموي كثرةُ الكتّاب. فقد احتاج الخلفاءُ والأمراءُ في الدولة الواسعة التي

حكموها، وأداروا شؤونها إلى جيش من الكتّاب، أخذوا يتزايدون مع تقدّم الدولة في الزمان، وامتدادها في المكان، ومع تعقُّد الإدارة، لكي ينهضوا بما نُدبوا له من تحبير الرسائل، ونقل الأوامر والنواهي من حاضرة الدولة إلى أطرافها، وإلى الولاة والعمّال والقُضاة المنبثّين في دولة واسعة، كانت تَسَعُ ربع العالم المتحضّر في ذلك العصر، ثم ليجيبوا عمَّا يَرِدُهم من رسائل الأقاليم. فإذا أُضيفتْ إلى ديوان دمشق دواوينُ الأطراف والولايات - وما أوسعَها وأكثرها!! - استطعتَ أن تتصوَّر كثرة الكتاب أَمْداداً لا أفراداً.

كنا قد ذكرنا في المقدّمة التي تحدثنا فيها عن ازدهار النثر أسماءَ ثمانية من هؤلاء الكتاب، ونثرنا في تضاعيف الفقرات السابقة أسماء كثيرةً أخرى، ونستطيع الآن أن نُضيف إلى هؤلاء وأولئك مَسْرداً يضمُّ أسماء الكتاب وأسماء الخلفاء الذين استكتبوهم مُقْتبسةً من تاريخ الطبريّ وحده[1]. وهم على كثرتهم يسيرٌ من وفير نعيا بإحصائه:

- عبيد الله بن أوس الغساني، كتب لمعاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد.
- أبو الزُّعَيْزعة مولى عبد الملك، كتب لعبد الملك بن مروان.
- محمد بن يزيد الأنصاري، كتب للوليد بن عبد الملك.
- جناح مولى الوليد بن عبد الملك كتب للوليد بن عبد الملك.
- الريّان بن مسلم، كتب لمعاوية بن يزيد.
- سليمان بن نعيم الحميريّ، كتب لسليمان بن عبد الملك.
- الليثُ بن أبي فروة، ورجاء بن حيوة [ت: ١١٢هـ]، وإسماعيل بن أبي حكيم [ت: ١٣٠هـ] كتبوا لعمر بن عبد العزيز.
- أسامة بن يزيد السليحيّ، كتب ليزيد بن عبد الملك.
- سعيد بن الوليد بن عمرو الكلبي، وشعيب بن أبي حمزة دينار الحضرميّ الأموي بالولاء كتبا لهشام بن عبد الملك.
- سالم بن عبد الرحمن، والزبير أو أبو الزبير بن المنذر، وعياض بن مسلم كتبوا ليزيد بن الوليد.

(١) ٧/١٩٨ وما بعد.

- ثابت بن سليمان الخشني، والربيعُ بن عَرْعَرة الخشني كتبا ليزيد بن الوليد.
- عبد الحميد بن يحيى المعروف بعبد الحميد الكاتب [ت: ١٣٢هـ] وعثمان بن قيس، ومخلَّد بن محمد كتبوا لمروان بن محمد.

أمَّا أسماءُ الذين انتظمتهم دواوينُ الرسائل في الأقاليم والأطراف فأكثرُ من أن يُحيطَ بهم إحصاءٌ أو استقصاء، في مثل هذا الكتاب المتعدّد الأبواب.

د- أنواع الرسائل وأغراضها

يشقُّ على مَنْ يدرس رسائل العصر الأموي أن يُخْضع ما يجمعُ منها لتنظيم، أو يسلك ما يختار ممّا يجمعُ في تقسيم، لتنوّع أقسامها، وتعدّد أغراضها، ولتداخل الأغراض المتقاربة الأفكار في كثير من الرسائل، غير أن محاولة التقسيم سواءٌ أأصابت الدقةَ أم أخطأتها مَطْلبٌ لا بدَّ من توخّيه لدراسة هذا التراث الضخم، والوقوف على معانيه ومراميه.

والسبيلُ الأوفر حظّاً من الصواب، والأبعدُ عن مزالق التخليط أن نَقْسم الرسائلَ على وجه التقريب لا القطع، والتغليب لا الاختصاص. وَفْق أغراضها الأساسية، وأن نتغاضى عمّا يشوبُ هذه الأغراضَ من أفكار تُلابسُها، ولا تُفْقدها كثيراً من تجانسها، على النحو التالي:

١) الرسائل السياسية الخارجية والداخلية، وهي خاصّة بالحزب الأموي الحاكم.
٢) رسائل الأحزاب الأخرى.
٣) الرسائل الإدارية.
٤) رسائل التأمين والتحذير.
٥) رسائل الشكوى والشفاعة.
٦) الرسائل الاجتماعية، وتضمُّ الاعتذار والعتاب والوعظ.
٧) الرسائل الوصفية، وهي أدبيةٌ فنية، تصويرُها يغلب تفكيرها.

obeikandl.com

١- الرسائل السياسية

يُخَيَّل إلينا أنه لم يُتَحْ للرسائل السياسية من عوامل الازدهار في عصر من عصور التاريخ العربي القديم مثلُ ما أتيح للرسائل السياسية في العصر الأموي. وهذه العوامل ضربان: ضربٌ عامّ ذكرناه في مقدمة هذا الكتاب حينما تحدَّثنا عن عشرة العوامل التي ارتقتْ بالنثر العربي في العصر الأموي، وضربٌ خاصٌّ بالرسائل السياسية وحدها.

أقوى العوامل الخاصَّة، وأبعدُها أثراً، وأبقاها على مدى العمر الذي عاشته الدولة الأموية هو الاختلافُ فيمن يتولَّى الخلافةَ، إذ امتدّ هذا الاختلافُ من زمان الفتنة الكبرى في عهد عثمان إلى العصر الأموي، حتى بعد أن قهر الأمويون خصومَهم واستأثروا بالحكم. والتعبيرُ عن هذا الاختلاف اتخذَ شكلين من أشكال النثر الأدبي: أولهما الخطابةُ التي فصَّلنا القولَ فيها، وثانيهما الرسائلُ التي نُحاول أن نقفَك على أفكارها ومراميها في هذا الباب.

والعاملُ الثاني - وهو ناجمٌ عن الأول - استمرارُ النشاط السياسي المعارض، والصخب الحزبي المقاوم، وما فرضَ النشاط والصخب على الخلفاء والأمراء من تبادل الآراء، وتحبير الرسائل لقمع الثورات، والقضاء على الفتن الخارجة على الحكم الأموي.

وثالثها اتّساعُ الدولة العربية الإسلامية، ومجاورتُها أكبرَ الممالك في زمانها، وما أفضتْ إليه المجاورةُ من محاورة على صَفَحات الرسائل الصادرة والواردة. وهذه العوامل وغيرها تمخضت عن ضربين من ضروب الرسائل السياسية: ضرب خارجي يصور علاقة الدولة العربية بما جاورها من دول العالم، وضرب داخلي يؤرّخ الأحداث والأفكار والمطامح السياسية التي كانت تدور في أذهان الخلفاء والأمراء من الحزب الأموي الحاكم، وأذهان المعارضين من زعماء الأحزاب الأخرى. فما فحوى كل ضرب؟

أ) الرسائل السياسية الدَّوْلية

لم تكن الرسائلُ السياسية الدَّوْليةُ في أدبنا القديم وليدةَ العصر الأمويّ، وإنما كانت من حَفَدة الرسائل التي أرسلها النبي ﷺ في السنة العاشرة إلى قيصر الروم، وكسرى الفرس، ونجاشيّ الحبشة، ومقوقس مصر، وملوك عمان

والبحرين واليمامة وجلّق. لكن الرسائل الجدَّات تميزن بغلبة الدعوة إلى الإسلام على الخوض في العلاقات السياسية بين الدول، فجاء حظُّها من الدين والعقيدة فوق حظِّها من الحرب والسلم.

فلمّا رسَّخ الأمويون الحكم العربي، وتسامعت ملوك الدول الكبرى بهم، أخذت هيبتُهم تسبق دعوتَهم، وشقَّتْ شمائلُهم الطرقَ لرسائلهم، وراحوا يتّصلون بما حولهم من الأمم، ويراسلون مَنْ يجاورهم من الملوك مراسلةَ الواثق بالنفس، المعتدِّ بالقوة، المؤمن بالحقّ. وتجلَّى في رسائلهم تيَّاران: تيارٌ سياسيٌّ خالص، يحدِّد علاقةَ الدولة الأموية بالدول الأخرى، وتيارٌ إنساني يشفع السياسة بالكياسة، ويُقيم العلاقة على الصداقة بلا توعُّد متكبِّر، ولا تودُّد ذليل.

أمَّا الرسائلُ التي تمحَّضت للسياسة، فأكثرها كان يُحْمَل من الولاة إلى الشرق، ومن الخلفاء إلى الغرب. فالحجَّاجُ بن يوسف الثقفي أرسل إلى (رتبيل) ملكِ الترك رسالة يطالبُه فيها بأن يسلمه عبد الرحمن بن الأشعث، بعد أن ثار ببني أمية، وأخفقتْ ثورته، ولجأ إلى ملك الترك ونصّ الرسالة[١]: «ابعث به إليَّ، وإلّا فوالله الذي لا إله إلّا هو لأوطئن أرضك ألف ألف مقاتل». وقتيبةُ بن مسلم أرسل رسالة إلى ملك الصين مع وفد يحملها إليه. ونصُّها[٢]: «إن قائدنا - يعني قتيبة - أقسم ألّا ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويختم ملوككم، ويجبي خراجكم».

«فأرسل ملكُ الصين مع الوفد العربي الذي وجّهه إليه قتيبةُ ترابَ الصين في صحاف الذهب، وأربعةَ غلمان من أبناء ملوكهم، وحريراً، وذهباً، ومعهم الرسالة التالية: هذا ترابنا فَطَأْهُ، وهؤلاءِ غلمانٌ من غلمان ملوكنا فاختمْهم، وهذه جزيةُ أرضنا، فَاجْبِها. وتحلَّلْ من يمينك».

قال ابن الأثير: «فقبل قتيبةُ الجزيةَ، وخَتَم الغلمان، وردَّهم، ووطِئَ الترابَ».

وإذا كان قتيبةُ - وهو قائد عسكريّ لا حاكم سياسيّ - قد احتكم إلى القوة فيما حَلَف وكتب، واستطاع بالحكمة الصينية لا بالسيف العربي أن يبرَّ بقسمه،

(١) الوثائق السياسية/ ٣٨٥.
(٢) الكامل في التاريخ/ ٦٦٤.

فإن حكمة عبد الملك اقتضتْ أن يكون ردُّه على حماقة قيصر بالفعل لا بالقول، وعلى حقده الأرعن بالتحدي الرزين، لا بالرسالةِ الغضوب.

في كلامنا على تعريب الدواوين ذكرنا أن عبد الملك أبطلَ من الطوامير (القراطيس) طرازَها الرومي القبطيَّ، واستبدل به طرازاً عربيّاً إسلاميّاً. ولمَّا كانت الرسائلُ تنقلُ بهذه الطوامير من دمشق إلى القسطنطينية، فقد ساءَ ملكَ الروم أن يُصْلحَ عبدُ العزيز بن مروان ما أمره أخوه بإصلاحه. فأرسل إلى عبد الملك رسالة يقول فيها[١]: «إنكم قد أحدثتم في طواميركم شيئاً من ذكر نبيكم نكرهُه، فَانْهَ عنه، وإلَّا أتاكم في دنانيرنا من ذكره ما تكرهون».

روى ابن الأثير بقية الخبر، فقال[٢]: «فَعَظُم ذلك عليه - أي على عبد الملك - وأحضر خالد بن يزيد بن معاوية، فاستشاره فيه، فقال: حرِّمْ دنانيرهم، واضربْ للناس سكَّةً، فيها ذكرُ الله تعالى، فضرب الدنانيرَ والدراهم».

والضرب الثاني تقترب فيه السياسةُ من المجاملة، وتنأى عن التهديد، وتحاول أن تبثَّ في تضاعيف الرسائل المُتَبادَلة روحاً إنسانية، يتناسى فيها زعماء الدول، وقادة الجيوش، وملوك الشعوب ما بينهم من اختلاف في الجنس واللسان والدين. وهي عند التحقيق رسائل وُديّة لا سياسية، لكن ما فيها من ودّ يغني عما في السياسة من كيد، ووِدادها أعود على الشعوب والزعماء من التنافر والحروب. إن النظر إلى هذه الرسائل بهذه العين يُخَوِّلها أن تتَّخذ مكانها ومكانتها من الرسائل السياسية. وإليك ما دار بين معاوية وملك الروم[٣].

أرسل قيصرُ إلى معاوية رسالة، قال فيها: «أخبرني عمّا لا قِبْلةَ له، وعمّن لا أبَ له، وعمَّن لا عشيرة له، وعمَّن سار به قبره، وعن ثلاثة أشياء لم تُخْلَق في رحم، وعن شيء ونصف شيء، ولا شيء، وابعث إليّ في هذه القارورة ببزر كلِّ شيء».

(١) الوثائق السياسية/ ٣٠٩.
(٢) الكامل في التاريخ/ ٦١٥.
(٣) الوثائق السياسية/ ١٦٧-١٦٨، ومختصر تاريخ دمشق ١٢/ ٣١٧.

بعث معاوية بالكتاب والقارورة إلى عبد الله بن عباس، فقال ابنُ عباس:

«أمّا ما لا قبلةَ له فالكعبة، وأمّا من لا أب له فعيسى، وأمّا من لا عشيرة له فآدم، وأمّا من سار به قبره فيونس، وأمّا ثلاثة أشياء لم تخلق من رحم فكبش إبراهيم، وناقة ثمود، وحية موسى، وأمَّا شيءٌ فالرجلُ له عقلٌ يعمل بعقله، وأما نصفُ شيء فالرجل ليس له عقل، ويعمل برأي ذوي العقول، وأمَّا لا شيء فالذي ليس له عقل يعمل به، ولا يستعين بعقل غيره. وملأ القارورةَ ماءً، وقال: هذا بزرُ كل شيء». وبعث به إلى معاويةَ. فبعثَ معاويةُ بالقارورة والكتاب إلى قيصر الروم».

ما ذكرنا من الرسائل السياسية يُغْني عمَّا لم نذكر. ومَنْ ينقّرْ في كتب التاريخ عمّا أغفلنا يظفرْ برسائل أخرى، فيها من التوعُّد والتودُّد، والمقارعة والموادعة ما في الرسائل السابقة. أبرزُها رسالةٌ[١] من ملك الروم إلى الوليد بن عبد الملك ورَدُّ الوليد عليها[٢]. ورسالة من قيصر[٣] إلى عبد الملك في إطراء الشعبيِّ الذي سَفَر إلى القسطنطينية، وعاد منها برسالة تُصانع الخليفة، وتنوِّه بسفيره. ورسالةٌ من يزيد بن المهلَّب[٤] إلى عدد من ملوك الترك.

وممَّا يحسنُ ذكرُه في خاتمة الكلام على الرسائل السياسية رسالتان:

أُولاهما أرسلَها ملكُ الهند إلى عمر بن عبد العزيز خامس الراشدين، وهي تدلُّ على أن صلاحه قد اتّسع مداه، وانساح صداه، حتى تسلَّق سقف العالم وقمم الهملايا، وحملَ ملكَ الهند على أن يُهديَ عمر بن عبد العزيز الهدايا، وأن يستهديه الهُدَى. فقال في رسالته[٥]:

«من ملك الأَمْلاك الذي هو ابنُ ألفِ ملك، والذي تحته ابنةُ ألفِ ملك، والذي في مَرْبِطه ألفُ فيل، والذي له نهران يُنْبتان العودَ والألَوة[٦] والجوز

(١) الوثائق السياسية/ ٤٠٢.
(٢) الوثائق السياسية/ ٤٠٢.
(٣) الوثائق السياسية/ ٣٠٨.
(٤) الوثائق السياسية/ ٤١٥.
(٥) الوثائق السياسية/ ٤٥١.
(٦) عود يُتبخر به.

والكافور، والذي يوجد ريحُه على مسيرة اثني عشر ميلاً، إلى ملك العرب الذي لا يُشركُ بالله شيئاً.

أمَّا بعدُ.. فإني قد بعثتُ إليك بهدية، وما هي بهدية، ولكنَّها تحية، وأحببتُ أن تبعثَ إليَّ رجلاً يُعَلِّمني، ويفهمني الإسلامَ، والسلام».

والثانيةُ أهمُّ من الأولى، وأَوْلى بالذكر، وأحفلُ بالسياسة، وأدلُّ على تقوى عمر بن عبد العزيز لأمور:

أوَّلها أنها صدرت عن القائد الأعلى إلى أدنى الجند مُفْعمةً بالحبّ والتقدير والرعاية لهم ولعيالهم.

وثانيها أنَّها انطوتْ على الإحساس المؤرِّق بفداحة التبعة التي يحتملها الحاكم العادل.

وثالثها معالجتُها أحوالَ الأسرى معالجة عملية واقعية.

ورابعُها معاملتها الرعيَّةَ بالسَّوِيَّة، فهي لا تُؤْثر الكبير على الصغير، ولا تقدِّم الحرّ على المَوْلى، ولا الذَّكَر على الأنثى. قال عمر في رسالته[1] إلى أَسْرى المسلمين في القسطنطينية:

«أمَّا بعدُ.. فإنكم تعدُّون أنفسكم أسارى، ولستم أسارى. معاذَ الله! أنتم الحُبَساءُ في سبيل الله. واعلموا أني لستُ أقسم شيئاً بين رعيتي إلّا خَصَصْتُ أهلَكم بأوفر ذلك وأطيبه. وقد بعثت إليكم خمسةَ دنانير، خمسة دنانير. ولولا أني خشيتُ، إنْ زِدْتكم، أن يحبسَه عنكم طاغيةُ الروم لزدتكم. وقد بعثت إليكم فلانَ بنَ فلان، يُفادي صغيركم وكبيركم، وذكركم وأنثاكم، وحرّكم ومملوككم بما يُسْأَلُ، فأبشروا ثم أبشروا».

ب) الرسائل السياسية الداخلية

قد يكون هذا الشطر من شطريْ الرسائل السياسية أَوْلى بالانتماء إلى السياسة من سابقه، وأجدرَ بالاسم من أخيه، وأحفلَ بالفكر السياسي وما يبغيه، وأقدر على التعبير عن معانيه ومراميه، وأغزرَ مِداداً، وأنشطَ رُسُلاً، وأبرعَ في تصوير ما كان يشغل الخلفاءَ والأمراءَ من ترسيخ الدولة،

(١) الوثائق السياسية/ ٤٥١.

وحماية الأمن، وإخماد المعارضة، وتَجْييش الجيوش، وجباية الضرائب، وتنظيم الدواوين.

ورسائلُ هذا الشطر شطران كذلك: أولهُما ما كتبه الخلفاءُ أو أمروا بكتابته، وهم يحاورون أندادهم المعارضين، أو يوجِّهون وُلاتهم المؤيِّدين. والثاني ما كتبه الولاةُ والقادة، وهم يصدعون بما أُمروا، أو يبشِّرون بما فتحوا، أو يسوِّغون سيرتهم في الرعيَّة، أو يدافعون عن طرائقهم في الإدارة.

١) رسائل الخلفاء

ربما كان معاوية بن أبي سفيان أبرعَ الخلفاء الأمويين في كتابةِ الرسائل السياسية، إمّا لأنّه أُوتي من الدهاء فوق ما أوتوا، وإمّا لأنه كان مؤسِّسَ الدولة الأموية، ومؤسِّسو الدول يلاقون من المعارضة ما يحتاج إلى قوة العارضة.

أرسل الحسنُ بن عليّ[١] - رضي الله عنهما - إلى معاوية رسالةً، يدعوه فيها إلى الرجوع عمَّا صنع، وينصحُ له بأن يبايعه، لأنه وبني هاشم أحقُّ بالخلافة من معاوية وبني عبد شمس. فكتبَ معاويةُ رسالةً مفصَّلةً، ردَّ بها على الحسن، وراح يسوقُ من الحجج ما يشفع لصنيعه، ولا ينكر في الوقت نفسه فَضْلَ الحسن وأهل البيت، وإنَّما يُنْكر عليه القدرة والخبرة، والجدارة بالإدارة، ويقيسُ نفسه بأبي بكر الصديق، والحسنَ بعليِّ بن أبي طالب، ويخلصُ من المقايسة إلى أن المسلمين راضون عن معاوية، وفيهم الحسن، كما كانوا راضين عن أبي بكر، وفيهم علي. وبهذه الحجَّة سوَّغ إمامة المفضول. ولم يَجْحَد منزلة الفاضل، فقال[٢]:

«قد فهمتُ الذي دَعَوْتَني إليه من الصُّلح. والحالُ فيما بيني وبينك اليومَ مثلُ الحال التي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد النبيّ ﷺ. ولو علمتُ أنك أَضْبَطُ مني للرعية وأَحْوَطُ على هذه الأمة، وأَكْيَدُ للعدوّ، لأجبتُك إلى ما دعوتني إليه، ورأيتُك لذلك أهلاً. ولكني قد علمتُ أني أَطْوَلُ منك ولايةً، وأقدمُ منك لهذه الأمة تجربة، وأكثر منك سياسة، وأكبرُ منك سنّاً. فأنت أحقُّ أن تُجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني».

(١) الوثائق السياسية/ ٩٠.

(٢) المرجع السابق/ ٩٢ وما بعد.

ثم راح معاوية يَعِد الحسنَ الوعودَ، ويُمَنِّيه الأماني، ويماكسه مماكسةَ التاجر الماهر، فيرغِّبه في أن يستأمره ويستوزره، كأن يشاطرَه السُّلطان، ويشاورَه في المعضلات، ويغدقَ عليه غِلال العراق، يجبيها عمالُه، ويُنْفقها على متارفه بلا رقابة ولا محاسبة. وفوق ذلك كلّه، يعاهده على أن يجعله وليَّ عهده من بعده. فيقول:

«فادخلْ في طاعتي، ولك الأمرُ من بعدي، ولك ما في بيتِ مال العراق من مال، بالغاً ما بلغ، تحتملُه إلى حيثُ أحببتَ، ولك خراجُ أيِّ كسور العراق شئت معونةً لك على نفقتك، يجبيها لك أمينُك، ويحملُها إليك في كلِّ سنة. ولك ألا يُسْتَولَى عليك بالإساءة، ولا تُقْضَى دونك الأمورُ، ولا تُعْصى في أمر أردتَ به طاعةَ الله عزَّ وجلّ. أعاننا الله وإياك على طاعتهِ. إنه سميعٌ مجيب الدعاء، والسلام».

واصطباغُ هذه الرسالة بالصبغة الواقعية في فهم السياسة، وفي تسخير الأموال لتحقيق الآمال، يذكّرك ما أشرنا إليه من صدور معاوية في سياسته طوالَ خلافته عن النزعة النفعية التي تجلَّتْ منذ خَطَب خطبته الأولى يومَ قدِم المدينة، فقال - وهو يساومُ الصحابة والتابعين، ومَنْ قد يصرفهم ترفُ الدنيا عن شظف الورع -: «إني سلكتُ طريقاً لي فيه منفعةٌ، ولكم فيه مثلُ ذلك، ولكلٍّ فيه مُؤاكلةٌ حسنة».

وسواءٌ أأرضاك هذا الأسلوبُ الواقعيُّ النفعيُّ من أساليب الحكم أم أَسْخَطك، فهو عند جهابذة السياسة أَحدُ العوامل التي رجَّحت كِفَّةَ معاوية، وجعلته أحد السياسيين الدهاة في تاريخ العرب.

ولمَّا كانت السياسة في الدولة الأموية مرتبطة بالشريعة، وكان الخلفاء متفاوتين في التقوى والتزام الأحكام، فإن التيار السياسي الذي يجري في رسائلهم يختلف من خليفة إلى خليفة. فأقلُّهم حفاظاً عليها تميل رسائله إلى الحكم الملكي النزاع إلى الأثرة والتفرد بالسلطة، واصطناع الأتباع، وتقريب الأقرباء. وأشدهم تعلُّقاً بالشريعة تميل رسائله إلى إيثار العامة على الخاصة، ومخالطة الرعايا، والسهر على مصالحهم، ومراقبة الصنائع، ومحاسبة المتكسّبين بالسلطة.

ومن الضرب الثاني رسائل عمر بن عبد العزيز، كتب إلى أبي بكر بن محمد واليه على المدينة، فحثه على العدل، ومخالطة الشعب، ومحاسبة الأمويين قبل سواهم لئلا يبخسوا الناس حقوقهم فقال له[١]:

«إياكَ والجلوسَ في بيتك. اخرجْ للناس، فآسِ بينهم في المجلس والمنظر، ولا يكنْ أحدٌ من الناس آثرَ عندك من أحد، ولا تقولَنَّ هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين، فإنَّ أهل أمير المؤمنين وغيرهم عندي سواءٌ، بل أنا أحرى أن أظنَّ بأهل بيتِ أمير المؤمنين أنهم يقهرون مَنْ نازعهم. وإذا أَشْكَل عليك شيءٌ، فاكتب إليَّ به».

وإذا كان النهج النفعيُّ الأَثِرُ الذي تراءى لك في خطب معاوية ورسائله قد أرسى أسس الدولة الأموية فإن هذا النهج نفسه عمل مع عوامل أخرى على تدميرها، لأن ركناً من أركانه - وهو ولاية العهد - كان أحد الأسباب التي أفسدت الحكم الأموي الوراثي وأسقطته.

فبعد موت معاوية بنصف قرن أراد يزيد بن عبد الملك أن يولي ولده الوليد عهده - وكان الوليد غلاماً لما يحتلم ولمّا يعرف بالفجور - فاقتحمته عينه، ونقل ولاية العهد إلى أخيه هشام ثم إلى ولده بعد أخيه.

وتولى الوليد بن يزيد الخلافة بعد هشام، ففسق ومجن، وشرب وطرب، وأتى المحرمات جهرة. ولو أنه تجنَّب غلطة أبيه، فلم يبايع لأحد من بنيه لاغتفر التاريخ بعض خطاياه، لكنه أصر على أن يفسد في الأرض حيّاً وميتاً، فأرسل إلى ولاة الأمصار رسائل ذوات نصّ واحد يطالب فيها بالبيعة لولده الحكم ثم لولده عثمان وأكبرهما غلام لما يبلغ سن الاحتلام. وممَّا جاء في الرسالة[٢]:

«إن أميرَ المؤمنين لم يكنْ منذ استخلَفه الله بشيءٍ من الأمور أشدَّ اهتماماً وعنايةً منه بهذا العهد لعلمه بمنزلته من أمر المسلمين.. فولَّى أميرُ المؤمنين ذلك الحَكَمَ ابنَ أمير المؤمنين، وعثمانَ ابنَ أمير المؤمنين من بعده، وهما ممَّنْ يرجو أمير المؤمنين أن يكون الله خلقَه لذلك، وصاغَه له، وأكملَ فيه أحسن

(١) الوثائق السياسية/ ٤٣٨.
(٢) الوثائق السياسية/ ٤٩٦.

مناقب مَنْ كان يولِّيه إيَّاه في وفاءِ الرأي وصحةِ الدين وجزالة المروءة والمعرفة بصالح الأمور... فبايعوا للحَكَمِ ابن أمير المؤمنين باسم الله وبركته، ولأخيه من بعده على السمع والطاعة».

والرسالةُ طويلةٌ ثقيلة، ليس فيها أَثارةٌ من بلاغة الأُمويين، أو ومضةٌ من ظَرْف الوليد «فقد كان الوليد بن يزيد - والقولُ لمروانَ بنِ أبي حفصة - من أجمل الناس وأشدِّهم وأشعرهم»[١]. ويُخيَّل إلينا أن الرسالة لم تكن من إنشائه ولا إملائه، وكأنَّما أنشأها كاتبٌ ناشئ، لم يُؤْتَ فِطْرةً موهوبة، ولا خِبرة مكسوبة.

ولمَّا تمادى الوليدُ بن يزيد بن عبد الملك في المجون قتله أهلُ الغيرة، وبايعوا عمّه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، فاختار الخليفةُ منصورَ بن جمهور لولاية العراق، وحمَّله رسالة مطوَّلة إلى العراقيّين، ابتدأها بالمسوِّغات التي حملت مَنْ قتلوا الخليفة الفاسق على قتله، وأهمُّها تطهيرُ دولة الإسلام من الآثام، وحمايةُ الحقوق من الانتهاك، فقال[٢]:

«إنَّ الله اختار الإسلام ديناً، وارتضاهُ، وطهَّره، وافترضَ فيه حقوقاً أَمَر بها، ونهى عن أمور، حرَّمَها ابتلاءً لعباده في طاعتهم ومَعْصِيتهم. فأكمل فيه كلَّ مَنْقَبة خيرٍ، وجسيم فضل. ثم تولاه، فكان له حافظاً، ولأهله المُقيمين حدودَ الله وليّاً، يحوطُهم، ويعزِّفهم بفضل الإسلام».

ثم مضت الرسالةُ تطري الخلفاءَ الذين احتكموا إلى الكتاب والسنة، وحكموا بهما، وتذكر ما أنعم الله به عليهم من النصر والتأييد إلى أن ذهب هشامٌ وأتى الوليد، فانتهك الحرمات، لا يزجرُه عنها خُلُقٌ، ولا يردعه دينٌ، فقالت:

«فتناسخت خلفاءُ الله ولاةُ دينه، قاضينَ فيه بحكمه، متَّبعين فيه لكتابه، فكانت لهم بذلك من ولايته ونصره ما تمَّتْ به النعمُ عليهم. قد رضي الله بهم لها، حتى توفّي هشامٌ، ثم أفضى الأمرُ إلى عدوِّ الله، المنتهكِ للمحارم التي لا يأتي مثلَها مسلمٌ، ولا يُقْدِم عليها كافرٌ، تكرُّماً عن غِشْيان مثلِها».

---

(١) تاريخ الخلفاء/ ٢٣٤.

(٢) الوثائق السياسية/ ٥٠٩.

وأوضحَ يزيد بن الوليد أنَّ قتل الوليد كان قِصاصاً لا اعتداءً، وتطبيقاً لحدٍّ مشروع لا سفكاً لدمٍ محرَّم، وأن كوكبة من الناقمين عليه صَدَعتْ بما أمرها به يزيد، فأنفذت فيه حكم الله، حمايةً للدين من الفساد، لا طمعاً في متارف الدنيا.

«أتيتُ جنداً، وقد وَغِرَت[1] صدورُهم على عدوِّ الله لِما رأَوْا من عمله. فإن عدوَّ الله لم يكن يرى من شرائع الإسلام شيئاً إلّا أراد تبديلَه، والعملَ فيه بغير ما أنزل الله. وكان ذلك منه شائعاً شاملاً عُرْيانَ، لم يجعل الله فيه ستراً، ولا لأحد فيه شكّاً، فذكرتُ لهم الذي نقمتُ وخفتُ من فساد الدين والدنيا، وحَضَضْتُهم على تلافي دينهم والمحاماة عنه».

كان يزيد بن الوليد قد أمَّر على الجند الناقمين عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، وأمره أن يستتيب الفاسق، وأن يدعوه إلى اختيار خليفة بالشورى، فإن استجاب وتاب، قبل توبته، وغفر حوبته. وإن أصرّ على المعصية أخذه بمعصيته، فأبى الوليد إلّا التمادي في الباطل، وبادر القوم بالقتال، فقتلوه مع عشرة من عُشراء السوء. قال يزيد:

«وبعثتُ عليهم عبد العزيز بن الحجَّاج بن عبد الملك، حتى لقي عدوَّ الله إلى جانب قرية، يقال لها البخراء، فدعوه إلى أن يكون الأمرُ شورى، ينظر المسلمون لأنفسهم مَنْ يقلِّدونه ممَّن اتفقوا عليه. فلم يجبْ عدوُّ الله إلى ذلك، وأبى إلا تتابعاً في ضلالته، فَبَدرهم الحملةَ جهالةً بالله، فوجدَ الله عزيزاً حكيماً، وأَخْذَه أليماً شديداً. فقتله الله على سوء عمله وعصبته ممَّن صاحبوه من بطانته الخبيثة، لا يبلغون عَشَرة».

في خاتمة الرسالة رسم يزيدُ بن الوليد خطوطَ السياسة التي عقد النيةَ على أن يسوس بها الأمة:

أوّلُها أن يُسْنِد أمور الدولة إلى الأخيار بعدما تولاها الأشرار.

والثاني أنَّ العدل أساسُ الحكم.

والثالث أن قيادةَ الرعاةِ للرعية معلَّقةٌ على الحكم بالسويّة، وعلى التزام ما في الكتاب والسنة من أحكام.

---

(١) امتلأت غيظاً وحقداً.

والرابع أن ولي العهد يختار بالشورى. قال يزيد بن الوليد: «قد أصبحتم اليوم على أمثلِ حالِكم، إذْ وُلاتكُم خيارُكم، والعدلُ مبسوطٌ لكم، لا يُسار فيكم بخلافه. فأكثروا على ذلك حمدَ ربِّكم، وتابعوا منصورَ بنَ جُمهور، فقد ارتضيْتُه لكم، على أنَّ عليكم عهدَ الله وميثاقَه، وأعظمَ ما عهد وعقد على أحدٍ من خلقه، لتسمعُنَّ وتطيعُنَّ لي، ولمن استخلفتُه من بعدي، ممَّن اتَّفقت عليه الأمَّةُ. ولكم عليَّ مثلُ ذلك، لأعملنَّ فيكم بأمر الله وسنة نبيّه ﷺ، وأتبع سبيلَ مَنْ سلَفَ من خياركم.

نسألُ الله ربَّنا ووليَّنا أحسنَ توفيقهِ، وخيرَ قضائهِ».

قد تقول: إن أجودَ ما في هذه الرسالة أنَّها - بلغة العصر الحديث - تصوِّر انقلاباً عسكريّاً، وُضِعت له خطةٌ، وأُعِدَّ له بيانٌ، واختير لتنفيذه مكانٌ منعزل، ونُفِّذ في حالة من النقمة على الخليفة الفاسد، وسُوِّغ القيام به بأسباب مقبولة، ووُعد الشعب بسياسة رشيدة تنشر العدل، وتنادي بالشورى.

وقد يقول غيرُك: إن بقاءَ الوليد بن يزيد على ما فيه من تعهُّر خيرٌ من أن يَقْتَتِلَ أبناءُ الأسرة الحاكمة، لأنّ اقتتالَهم يمزِّق وحدتهم، ويُطْمع فيهم أعداءهم المتربِّصين بهم. وإلى هذا الرأي ذهب مروانُ بن محمد قبلَ أن تؤولَ إليه الخلافةُ. كان مروان يعرف من الوليد بن يزيد ما يعرفُه كلُّ الناس من الفساد، لكنه رأى بعيني البصيرة - وصدقت رؤيتُه - أنَّ الانقلاب يشقُّ الصفَّ الأموي المرصوص، ويخرقُ سور الأسرة الشامخ، ويُشْلي عليها أعداءَها، لا ليقتلوا خليفةً يُسْخطهم، ويبايعوا خليفةً يُرْضيهم، بل ليسحقوا الدولة كلَّها، ويقتلعوا الجذورَ الأموية، وأحداثُ التاريخ أثبتتْ أنه كان على حقّ.

لم ير مروان بن محمد هذا الرأي وهو خليفة، ولم يعتصم به، وهو وليّ عهد يخشى أن تفوته الخلافة. وإنما رآه وهو مجاهد مرابط على ثغور الدولة في إرمينية وأذربيجان والجزيرة. ولو كان في الشام لقمع الفتنة قبل نشوبها.

وأدلُّ ما يدلُّك على أنه كان من عُقلاء الساسة، وعظماء الخلفاء رسالةٌ أرسلَها إلى سعيد بن عبد الملك، وسعيدٌ هذا كان حسن السيرة عاقلاً متعبِّداً، غير أن حظَّه من الحزم والسياسة لم يَعْدِلْ حظَّه من العقل والعبادة فعجز عن الصدع بما أمره به مروانُ بن محمد من رَأْب الصَّدْع وَلمِّ الشملِ، وتوحيد الأسرة الأموية.

قال مروانُ في رسالته التي أرسلها إلى سعيدِ بن عبد الملك[١]:

«إن تمَّت لهم رويَّتُهم[٢] فيه على ما أَجْمَعوا عليه من نَقْض بيعتهم استفتحوا باباً، لن يغلقه الله عنهم، حتى تُسْفَك دماء كثيرة منهم، وأنا مُشْتغِل بأعظم ثغور[٣] فَرْجاً[٤]. ولو جَمَعْتَني وإيَّاهم لَرَمَمْتُ فساد أمرهم بيدي ولساني، ولخفْتُ الله في ترك ذلك لعلمي ما في عواقب الفُرْقة من فساد الدين والدنيا. وأنه لن ينتقل سلطان قوم قطّ إلَّا في تشتيت كلمتهم».

وصدق مروانُ فيما كتب، وأصاب فيما حذَّر، إذْ لم يمضِ إلَّا زمنٌ قصير حتى وقع ما توقَّع. فقد كان اختلافُ الأمويين واقتتالُهم أفتكَ بهم، وأفعلَ في سقوطهم من سيوفِ المسوِّدة ورماحِهم.

٢) رسائل الوُلاة والقادة

ربّما كان المدادُ الذي أراقه الولاة والقادة على طوامير الرسائل السياسية أغزَر من المداد الذي أراقه الخلفاءُ. فهم كثرة منتشرون في أصقاع الأرض، والخليفةُ واحد، يرسم برسائله الخطوطَ الكبرى، ويضعُ أقدام الوُلاة والقادة على مفارق الطرق، ثم يُخلّي بينهم وبين ولاياتهم يسوسونها، وكتائبهم يقودونها.

كان كلُّ وال يسوس ولايته بما يرى على ألّا يخالفَ رأيَ الخليفة، وكان كلُّ قائد يقود جنده بما يجتهد على أن يلتزم ما ألزمه الخليفة اتّباعه. فَمَنْ جنحَ من هؤلاء وأولئك أُعيد إلى الجادَّة، ومن خَطَر له أن يجدِّد أو يجتهد، أو يُفْتي فيما ليس له به علم، أرسلَ رسولَه إلى الخليفة يُؤامِرُه فيما اعتزم.

من أقدم الولاة الذين اصطنعهم الأمويون، وندبوهم لملاحقة الشيعة زياد ابن أبيه الذي جعل همَّه وسَدَمه أن يتعقَّب زعماءهم، ويتصيَّد دُعاتَهم، ولو كانوا من كبار الصحابة. ومن هؤلاء الدعاة حُجْرُ بنُ عدي.

---

(١) الوثائق السياسية/ ٥٠٣.
(٢) التفكر والتريث.
(٣) مواضع وجود الجند على الحدود.
(٤) انكشافاً على العدو.

«كان حُجْرُ بنُ عديّ [ت: ٥١هـ] - والقولُ للزركلي - من أصحاب عليّ، شهد معه وقعتي الجمل وصفّين، وسكن الكوفةَ إلى أن قدم زياد بن أبي سفيان والياً عليها. فدعا به زيادٌ فجاءَه، فحذَّره زيادٌ من الخروج على بني أمية. فما لبث أن عُرِفتْ عنه الدعوةُ إلى مناوأَتهم والاشتغال في السرِّ بالقيام عليهم فجيء به إلى دمشق، فأمر معاويةُ بقتله، فَقُتِلَ». ولولا رسالةُ زياد ما قُتل، فما نصُّ هذه الرسالة[١]؟

«بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله معاوية أمير المؤمنين من زياد بن أبي سفيان. أمَّا بعد..

فإن الله قد أحسنَ عند أمير المؤمنين البلاءَ، فكادَ له عدوَّه، وكفاه مؤونةَ مَنْ بَغَى عليه. إن طواغيتَ من هذه الترابيّةِ[٢] السَّابَّةِ[٣] - وعلى رأسهم حجرُ بن عديّ - خالفوا أمير المؤمنين، وفارقوا جماعة المسلمين، ونصبوا[٤] لنا الحربَ، فأظهرنا الله عليهم، وأمكننا منهم. وقد دعوت خيار أهل المصر وأشرافهم وذوي السنّ والدِّين منهم، فشهدوا عليهم بما رأَوْا وعلموا. وقد بعثتُ بهم إلى أمير المؤمنين، وكتبتُ شهادة صلحاء أهل المِصر وخيارهم في أسفل كتابي هذا».

إن هذه الرسالة ليست تهمةً تُرْفَع إلى محكمة للنظر فيها، وإنما هي تهمةٌ مشفوعة بأدلة دامغة، وشهود عدول، وحُكْمٌ بالإعدام أصدره زيادٌ في العراق لينفّذه معاويةُ في دمشق. وهي - على إيجازها - تدلُّ دلالة واضحة على أن بلاغة زياد في الترسُّل لا تتخلَّفُ عن بلاغته في الخطابة، وعلى أن أسلوبه الجزل فيما خطب وكتب يعدلُ أسلوب الحازم فيما حكم وأدار.

من يستقرئ الرسائل التي كتبها ولاة العراق، وبعثوا بها إلى الخلفاء يُفْضِ به الاستقراء، إلى أن الأمراء كانوا أشدَّ على الرعية ممن ولَّوهم الإمارة، وأنهم في أكثر الأحيان كانوا يتمادون في العنف بالرعية، ويشقون عليها، فيضعون

(١) الوثائق السياسية/ ١٤٧.
(٢) نسبة إلى الإمام علي (أبي تراب).
(٣) الشاتمة، العائبة.
(٤) أظهروا.

السيف حيث يوضع السوط، والسوط في موضع العفو، فيعاقبون من يستطيعون اصطناعه.

وهذه السياسة قد تطفئ ظاهر الفتنة، وتضرم باطنها، وقد تكمّ الأفواه، لكنها توغر القلوب، طالب الحجاج عروة بن الزبير بمال، ففرَّ إلى عبد الملك بن مروان، واستجار به، فأجاره، فأرسل الحجاج إلى عبد الملك الرسالة التالية[١]:

«أما بعد.. فإن لواذ[٢] المعترضين بك، وحلول الجانحين[٣] إلى المكث بساحتك، واستلانتهم دمث[٤] أخلاقك، وسعة عفوك، كالعارض[٥] المُبرق، لا يعدم له شائماً[٦]، رجاءَ أن يناله مطره. وإذا أدنى [الخليفةُ] الناس بالصفح عن الجرائم، كان ذلك تمريناً[٧] لهم على إضاعة الحقوق مع كل وال. والناس عبيد العصا، هم على الشدة أشدُّ استياقاً منهم على اللين.

ولنا قِبَلَ عروة بن الزبير مال من مال الله، وفي استخراجك منه قطع لطمع غيره. فليبعث به أمير المؤمنين إن رأى ذلك، والسلام».

لقد نزع الحجاج عن قوس زياد في الترسّل كما نزع عن قوسه في السياسة، لكنه بزّه فيما حاكاه، وشآه فيما جاراه، فأتت رسالته موجزة غاية الإيجاز، محكمة غاية الإحكام، تنتقد عبد الملك، وهي تضفي عليه المدح، وتتهمه بالضعف، وهي تدعي أنها تطريه بالحلم. وتعرض هذه المعاني التي صيغت تراكيبها أذكى صياغة، بصور متقنة الرسم، وبيان مشرق الديباجة. فكيف تلقاها عبد الملك؟.

لم ينكر عبد الملك على الحجَّاج إخلاصه النصح له، ولم يجحد وفاءَه وولاءَه، لكنه بالحلم الذي قلَّد به معاوية، كان له من المعارضة والمعارضين،

---

(١) الوثائق السياسية/ ٣٥٣.
(٢) لجوء.
(٣) المخالفين المنحرفين عن الطاعة.
(٤) سهولة ولين.
(٥) السحاب.
(٦) الناظر أن يمطر.
(٧) تدريباً.

والانتهاز والمنتهزين موقفٌ آخر. لقد ألقى سيفَ الحجاج وسوطَه، وتغمَّد طمع عروة وإسرافه بحلم معاوية وعفوه، ثم أجاب الحجَّاج بمثل بيانه، فقال[١]:

«أمَّا بعدُ.. فإن أميرَ المؤمنين رآك - مع ثقته بنصيحتك - خابطاً في السياسة خبْطَ عشواءِ الليل. فإنَّ رأيك الذي يسوِّل لك أنَّ الناسَ عبيدُ العصا هو الذي أخرجَ رجالاتِ العربِ إلى الوثوب عليك. وإذا أَحْرَجْتَ العامة بعنفِ السياسة كانوا أَوْشَك وثوباً عليك عند الفُرصة، ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعي ولا هُداه إذا رَجَوْا بذلك إدراكَ الثأر منك، وقد وَلِيَ العراق قَبلَكَ ساسةٌ هم يومئذ أَحْمى أُنوفاً[٢]، وأقرب من عمياء[٣] الجاهلية، وكانوا عليهم أصلحَ منك عليهم. وللشدَّة واللين أهلون، والإفراطُ في العفو أفضلُ من الإفراطِ في العقوبة. والسلام».

يبدو أن إسرافَ الحجَّاج في معاقبة الظنين، وتماديه في اضطهادِ الأَعيان من رجالات العرب أسخطا عليه عبد الملك، ومَنْ كان يُحيط به من الأمويين، فراح يحاسبه ويوجّهه، ويأخذُ عليه عنفه بالناس، لئلّا يغيظ المسالمين، فيجعلهم مقاومين، ويحنق المترددين، فيحوِّلهم إلى معارضين. ويبدو كذلك أن سياسة عبد الملك في مراقبة الحجاج ومحاسبته انتقلتْ منه إلى ولده من بعده لخوفه من أن يفسد وهو ينوي الإصلاح، ويهدم وهو يدَّعي البناء.

طَلَب الوليدُ بعد أن تولى الخلافة أن يرسل إليه الحجَّاجُ رسالة يُخْبره فيها بسيرته في الناس، فبعث إليه برسالة موجزة، جمعتْ اللطف إلى العنف، والثوابَ إلى العقاب، وشفعتْ الحلم بالحزم، وكشفتْ عن حنكةِ الحجَّاج في معاملة الخلفاء، وخبرته في مخاطبتهم، وقدرته على المراوغة، وبراعته في الإقناع.

وأعجبُ ما يُعجبك في هذه الرسالة صياغتُها الأدبية المتقنة، وبيانُها المشرق، وجملها المترابطة، وصورها الحيَّةُ، ومناقلتُها بين الكلام المرسل، والجمل المزدانة بحليتيْ السجع والمقابلة. قال الحجاج[٤]:

---

(١) الوثائق السياسية/ ٣٥٣.
(٢) أكثر أنفة وحمية ومنعة.
(٣) ضلال، غواية.
(٤) الوثائق السياسية/ ٣٤٦.

«إني أيقظتُ رأيي، وأَنَمْتُ هوايَ، فأدنيْتُ السيد المطاع في قومه، وولَّيت الحربَ الحازمَ في أمره، وقلَّدتُ الخراجَ الموفر لأمانته، وقسمتُ لكلّ خصم من نفسي قسماً، يُعْطيه حظّاً من نظري، ولطف عنايتي، وصرفتُ السيفَ إلى النطِف[١] المسيء، والثوابَ إلى المحسن البريء، فخاف المريبُ صولة[٢] العقاب، وتمسَّك المحسنُ بحظِّه من الثواب».

إن التراسل السياسيَّ الداخليَّ الذي كان الأمراء والخلفاء يتراسلونه لم يكن يجري على نَسَقٍ واحد في التعامل بين الرئيس والمرؤوس، ولم تُنْشَأ رسائلُه من لغة تحافظُ على طبقة واحدة في البيان. وإنما كان يصطبغ في أكثر الأحيان بصبغة الخليفة في السجايا والأخلاق والسياسة والإدارة، إذْ يُضطر الولاةُ، سواء أكانوا يوافقون الخليفة أم يخالفونه إلى مصانعته، والتطبُّع بطباعه، والخضوع لأوامره.

فنصرُ بنُ سيّار [ت: ١٣١هـ] كان من الفرسان الشجعان، والولاةِ الدُّهاة. ومع أنه كان كما يقول الجاحظُ في إطرائه: «من الخطباءِ الشعراء، ويُعَدُّ في أصحاب الولايات والحروب والتدبير والعقل وسداد الرأي» لم يجدْ أدنى غضاضة في موافقة يزيد بن عبد الملك على تولية العهد ولديه: الحكمَ وعثمانَ، وكلاهما غلامٌ، لمّا يحتلمْ. وأرسل إلى دمشق رسالةً تطغى عليها المجاملةُ الفاترة، ويُجافيها سدادُ الرأي، ويعوزها الصدق في الإحساس، والجودة في الصياغة، فقال[٣]:

«بسم الله الرحمن الرحيم. نبايعُ لعبد الله الوليدِ أمير المؤمنين، والحَكَم ابن أمير المؤمنين، إن كان من بعده، وعثمانَ ابنِ أمير المؤمنين، إن كان بعد الحكم، على السمع والطاعة، وإنْ حدثَ بواحد منهما حَدَثٌ، فأميرُ المؤمنين أَمْلَكُ في ولده ورعيته، يقدِّم مَنْ أحبَّ، ويؤخِّر من أحبَّ. عليَّ بذلك عهد الله وميثاقُه».

ولا يتبدَّى لك ما في هذه الرسالة من مجاملة تُقاربُ المَلَق، حتى تقرنَها برسالة مروانَ بنِ محمد التي أرسلها إلى سعيدِ بن عبد الملك، ووقفناك على

(١) المتهم بريبة.
(٢) سطوة.
(٣) الوثائق السياسية/ ٥٠١.

ما فيها من معارضة ليزيدَ، ومن حفاظٍ على وحدة الأسرة الأموية، وغيرة على الدولة العربية، لا على المصلحة الخاصة.

وممّا يؤكِّد ما زعمنا من اصطباغ الرسائل بصبغة الخليفة أن الفترة القصيرة التي حكم فيها عمرُ بن عبد العزيز شهدت لوناً من التراسُل لم نعهده في دولة بني مروان من قبل، لكنه هجع في ذاكرة التاريخ، ثم أخذ يستيقظ بين حين وآخر.

وأهمُّ ما وسم التراسُل بين الخليفة والولاة في عهد الخليفة الراشد الخامس التصارُحُ والتناصُحُ، والحرصُ على مصالح الرعية قبل الحرص على مصالح الرعاة، والاحتكامُ في إدارة الدولة إلى الشريعة، واهتمامُ عمر ووُلاتِه بذوي الحاجات، وتجنيدُ البريد لخدمة الضعفاء، وتسخيرُ أموال الدولة لقضاءِ دَيْن المُعْسر، وتزويج العَزَب، وإقراض الذميّ.

أرسلَ عبد الحميد بنُ عبد الرحمن عاملُ عمرَ بنِ عبد العزيز على العراق رسالةً يقول فيها للخليفة[١]:

«إني قد أخرجتُ للناس أعطياتهم، وقد بقيَ في بيت المال مالٌ» فكتب إليه عمر: «انظرْ كلَّ مَنْ اسْتدانَ من غير سَفَهٍ ولا سَرَف، فاقضِ عنه» فكتبَ إليه: «إني قد قضيْتُ عنهم، وبقي في بيت مال المسلمين مال». فكتب إليه: «أن انظر كلَّ بكر ليس له مال، فشاءَ أن نُزَوِّجَه، فزوِّجْه، وأَصْدِق عنه[٢]». فكتب إليه: «إني قد زوَّجتُ كلَّ مَنْ وجدت، وبقي في بيت مال المسلمين مال». فكتب إليه بعد مَخْرَج هذا: «أن انظُرْ مَنْ كانت عليه جزيةٌ، فَضَعُفَ عن أرضه، فأَسْلِفْه ما يَقْوى به على عمل أرضه، فإنّا لا نريدهم لعامٍ ولا لعامين».

استيقظ هذا النمط من الرسائل التي تُؤْثر مصالح الرعية على مصالح الرعاة في نفس خالد بن عبد الله القسري والي العراقين في عهد هشام بن عبد الملك، حينما أناب عنه أبان بن الوليد البجلي في إدارة كنف من أكناف البصرة يخترقه نهر المبارك.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٩/ ١١٧، وكان عمر بن عبد العزيز قد كتب إلى عبد الرحمن «أن أخرج للناس أعطياتهم».

(٢) ادفع الصداق (المهر) عنه.

بعد أن ولاه كتب إليه رسالة قيمة رزينة، يطوف بها طائف من حلم معاوية بن أبي سفيان ورفقه، وطائفٌ من ورع عمر بن عبد العزيز وعدله، وتتوازن فيها كِفّتا القدرة والرحمة، ويُجَنَّدُ فيها الإحسان لا السلطان لاستعباد الإنسان، وتنمُّ على فكر سياسي رفيع، وفهم إنساني عميق لتبعات الحاكم، وتعبر عن هذا الفكر بلغة مهذبة، وجمل رصينة تستوحي رصانتها من تجربة في السياسة طويلة، وخبرة في الإدارة واسعة، وتعطر أفكارها بروح إنسانية نبيلة، وتستلهم سموّها من بعض الآيات الكريمة. قال خالد القسري في رسالته هذه[١]:

«أمّا بعدُ. فإن في الرعيةِ من الحاجة إلى وُلاتها مثلَ الذي بالولاة من الحاجة إلى رعيَّتها. وإنّما هم من الوالي بمنزلة جسده من رأسه، وهو منهم بمنزله رأسه من جسده. فأَحْسِنْ إلى رعيتك بالرفق بهم، وإلى نفسك بالإحسان إليهم. ولا يكونُنَّ هُمْ إلى صلاحهم أسرعَ منك إليه، ولا عن فسادِهم أدفعَ منك عنه. ولا يحْملك فضلُ القُدْرة على شِدَّة السَّطْوَة بمن قلَّ ذنبُه، ورجَوْتَ مراجعتَه. ولا تطلبْ منهم إلَّا مثلَ الذي تبذلُ لهم. واتق الله تعالى في العدل عليهم، والإحسان إليهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٦/١٢٨].

اصرِمْ[٢] فيما علمت، واكتبْ إلينا فيما جهلت. يَأْتِكَ أمرُنا إن شاء الله. والسلام».

٣) هل تأثرت الرسائل السياسية بالفكر اليوناني؟

ذهب د. إحسان عبّاس إلى أنَّ الرسائل السياسيةَ - ولاسيّما رسائل عبد الحميد الكاتب - تأثَّرت بالفكر السياسي اليوناني، فقال[٣]:

«الأقربُ إلى الاحتمال أنَّ عبد الحميد الكاتب كان مطَّلعاً على ما يُنْقَل في عصره من الثقافات المختلفة، وخاصَّة الفارسية واليونانية. فأمَّا الفارسيةُ فهناك إجماعٌ من الروايات على أنَّ عبد الحميد كان صديقاً لابن المقفع،

(١) مختصر تاريخ دمشق ٧/ ٣٨٢.
(٢) امضِ.
(٣) ملامح يونانية في الأدب العربي/ ٩٩ وما بعد.

وكان ابن المقفَّع - دون ريب - داعيةَ الثقافة الفارسية بما ينقلُه أو يترجمه أو يلخِّصه عنها. ومن المستبعَد، والصلة وثيقةٌ بين الرجلين، ألّا يتأثر عبد الحميد بذلك اللون من الثقافة. وأمَّا اليونانية فإن عبد الحميد كان خَتَناً لسالم مولى سعيد بن عبد الملك. وكان سالم كاتباً عند خلفاء بني أمية حتى عهد هشام بن عبد الملك. ولا يُسْتَبعَد أن يكون عبد الحميد قد تخرَّج به، وسلك طريقه، ونسج على منواله، وأن سالماً هذا نَقَل أو نُقِل له من رسائل أرسطاليس إلى الإسكندر».

بدأ د. إحسان برسائل سالم فنقل منها فقرة رأى فيها مخايلَ الثقافة اليونانية، وردت الفقرة في رسالة كتبها سالم بقلم هشام بن عبد الملك، ووجَّهها إلى عمرو بن سعيد يهدِّئ من روعه لأن خالداً القسريَّ استخفَّ به. جاء في هذه الرسالة[١]:

«أما بعدُ، فقد بلغ أميرَ المؤمنين كتابُك، وفهم ما ذكرتَ من تسليط خالد عليك لسانَه في مجلس العامة مستحقراً لقدرك، ومستصغراً لقرابتك بأمير المؤمنين، وإمساكك عنه تعظيماً لأمر أمير المؤمنين وسلطانه، وتمسُّكاً بوثائق عصم طاعته، على مؤلمِ ما تداخَلَك من قبيح ألفاظه، وشِرَّة منطقه، وإكبابه عليك عند إطراقك عنه...».

وقال في التعليق على هذه الفقرة: «يمكنُ أن يُسمّى هذا (أسلوب الأناة الفكرية)، حيث يعمد الكاتب إلى الامتداد بالجملة قبل أن يُبْلغها غايتها، ولذلك قد يعمدُ الكاتب فيه إلى جعل جمل فرعية معتمدة على الجملة الأصلية إما بإيراد جملة وصلية، أو بالخروج إلى حيِّزٍ متفرّع عن الحال الموصوفة».

ثم ينتقل إلى عبد الحميد الكاتب، فيرى أنه تأثر برسائل أرسطاليس تأثُّراً واضحاً، فيقول[٢]: «ومن الذين تأثَّروا بتلك الرسائل، وأفادوا منها، وانعكسَتْ بعضُ مادَّتها في كتاباتهم يبرزُ دون موارية دورُ عبد الحميد أظهرُ معاصرٍ لسالم، وأجدرُ مَنْ يمكن أن يتأثر به من خلال التلمذة والمعاصرة».

لم يكتف د. إحسان - وهو يثبتُ تأثُّر الكاتب العربيّ بالفيلسوف اليوناني -

(١) ص/١٠٣.
(٢) ص/١٠٥.

بالظنِّ والتخمين، والتشابه المحتمل، بل قرن فقرة من كلام الناقل بفقرة من كلام المنقول عنه، وأشار إلى التطابق بين فكرتين وعبارتين، فقال[١]:

«إذا قال أرسطاطاليس: واجعل الحرب آخر أمرك، عانياً بذلك إدراك ما لا بدّ من إدراكه بالمكيدة بدل الحرب، وجدنا عبد الحميد يقول: اعلم أن الظفر ظفران: أحدُهما، وهو أعمُّ منفعةً، وأبلغُ في حسن الذكر قالةً، وأَحْوَطُه سلامةً، وأتمُّه عافيةً، وأَعْوَدُه عاقبة، وأحسنُه في الأمور مورداً، وأعلاه في الفضل شرفاً، وأصحُّه في الرؤية حَزْماً، وأسلمُه عند العامة مَصْدراً؛ ما نِيلَ بسلامة الجُنود، وحسن الحيلة، ولُطْف المكيدة».

إن القارئ بعد أن يُقرّ بأن د. إحسان عباس أجاد فيما سلك من سُبل البحث بأسلوب علمي، وفيما أَعْنَتَ به نفسَه من الاستقصاء، وفيما نقَّر وقارن واستنبط، يستطيعُ أن يسلك مسلكَه في البحث والاستقصاء والتنقير والمقارنة والاستنباط، ويُفضي به مَسْلَكُه هذا إلى أمور لا يقطع بصحتها، بل يشكك بإيرادها في صحَّة الأحكام والنتائج التي وردتْ في كلام الباحث المدقِّق المحقق.

أوَّلُ هذه الأمور أن الصداقة بينَ ابن المقفع وعبد الحميد وإصهار عبد الحميد إلى سالم لا يعنيان بالضرورة التشابهَ في الثقافة والتفكير، فقد كان الكميتُ والطرمَّاح متلازمينِ تلازم التوائم، والأوَّلُ من شعراء الشيعةِ، والثاني من شعراء الخوارج، وبين الحزبين حروبٌ ودماء، وبين الرجلين تعارضٌ في الأفكار والسياسة، وتناقضٌ في الدوافع والنوازع.

وثانيهما أنّ د. إحسان نفسه - وكأنَّه أدرك ما في كلامه من ضعف - قال[٢]: «أحبُّ ألَّا يتبادرَ إلى الذهن أنَّ عبد الحميد قد اقتبسَ معلوماته في السياسة الحربية من الرسائل المنسوبة إلى أرسطاطاليس».

والثالثُ أن التفصيل والترادفَ - وهو ما سمَّاه الباحث أسلوبَ الأناة الفكرية - من أساليب العرب، فقد أَلِف العربُ في بعض كلامِهم هذا الضربَ من القول قبل أن يخرجوا من جزيرتهم، ويحتكُّوا باليونان، وظلوا يفصّلون إذا وجدوا أن التفصيل أوفى، والترادف أشفى.

---

(١) ص/١٠٦.
(٢) ص/١٠٥.

إن أسلوب سالم وعبد الحميد ليس بدعةً لا سابقة لها، فإذا قال عبد الحميد[١]: «أَحْوَطُه سلامة، وأتمه عافيةً، وأسلمُه مَصْدراً»، فإنه لم يأتِ بغير ما عرف عن العرب من الإطناب والترادف. قال الأحنف بن قيس[٢]: «لولا عزمةُ أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفةً ردفت، ونازلةً نزلت، ونائبةً نابت».

وقبلَ سالم وعبد الحميد والأحنف فصَّل رسولُ الله ﷺ في الحديث المشهور «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته، فالإمام راعٍ، وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيته...»[٣] ثمَّ ذكر المرأة، والخادم، وغيرهما بالأسلوب نفسه. وقطريُّ بنُ الفجاءة رادَفَ وفصَّلَ في وصف الدنيا فقال[٤]: «هي غرّارةٌ ضرَّارة، خوّانةٌ غدَّارة، حائلة زائلة، نافدة بائدة، أكَّالة غوَّالة، بدّالة نقّالة»، وكلُّ ما فعله عبد الحميد أنه أسرف وتوسّع، ففصّل المفصّل، ورادف المرادَف، لكنه بقي مقلداً، ولم يجدّدْ.

والأمرُ الرابع أن ما نقله د. إحسان من كلام الفيلسوف اليوناني ورَدَ في كلام العرب ما يُضارعه قبل أن يعايشوا الفرس وقبل أن يُترجموا ثقافة الإغريق. والعقلُ الإنساني لم يكن يوماً من الأيام حِكراً على شعب من الشعوب، أو وقفاً على فيلسوف من الفلاسفة. فربَّما وقع الحافرُ على الحافر، وخطرت الفكرةُ الواحدة في عقلين أحدُهما صينيٌّ أصفر، والثاني غاليٌّ أشقر. وبينهما قارَّات واسعة، واختلافٌ في الأمكنة والأزمنة والألسنة.

ولماذا نَدَّعي أن عبد الحميد أخذَ ما قاله في الحرب والمكيدة من الأدب اليوناني، ولا نقول: إنه أخذه من التراث العربي، وهو المثقَّفُ بهذا التراث، الناطقُ بلغته، الدائنُ بدينه، المتهدِّي بهديْ نبيّه؟

فمن أشهرِ الأحاديث الشريفة وأَسْيَرِها «الحربُ خدعة»[٥]. وعبدُ الملك بنُ مروان أوصى أحد قواده قبل أن يرسله إلى حرب الروم، فقال[٦]: «وكُنْ من

(١) ص/١٠٦.
(٢) التذكرة الحمدونية/ ٢٢.
(٣) الجامع الصغير ٢/ ٧١١.
(٤) ديوان الخوارج/ ٢٦٥.
(٥) الجامع الصغير ١/ ٤٤٠.
(٦) الوثائق السياسية/ ٢٩٢.

احتيالِك على عدوِّك أشدَّ حِرْصاً من احتيال عدوِّك عليك». والمهلَّبُ بنُ أبي صُفْرة حينما حَضَرته الوفاةُ، أوصى أبناءَه بقوله[١]: «وعليكم في الحرب بالأناة والتُّؤدة في اللقاء، وعليكم بالتماس الخديعة في الحرب لعدوّكم، وإيَّاكم والنَّزَق والعَجَلة. فإن المكيدةَ والأناةَ والخديعة في الحرب أنفعُ من الشجاعة».

وفحوى هذه المناقشة أنَّ القولَ باقتباس الشرق من الغرب، واتِّكاء العرب على اليونان بدعةٌ ابتدعها أهلُ الأدب المقارن، والمباهون بمعرفتهم الآدابَ الأجنبية. وليس فيما ابتدعوا ما يشرِّفُ بحوثهم، ويرقى بها إلى مرتبة البحث العلمي الموضوعيّ في كلِّ حين، وإنَّما فيها أو في بعضِها ما يهوي بها إلى مرتبةِ الارتجال، ويرميها بمخالفةِ المنهجِ العلمي، ونقصِ الاستقراء، وإغفالِ الإحصاء والاستقصاء، وبخسِ الحقّ، وغَمْط السبق.

ج) رسائل الأحزاب

لم يستطع معاوية بن أبي سفيان مع دهائه في تألُّف المنافسين المسالمين، ومضائه في محاربة المناوئين المقاومين، أن يتألَّف كلَّ القلوب المتردِّدة، ويقهر كل السيوف المتمرّدة، ويُغمد كل الألسنة المعارضة في الأفواه، ويمنع الأقلام الناقدة من تدبيج الرسائل.

لقد بقيتْ عقابيلُ الجمل وصفّين تحرّك الشيعةَ على الأمويين سِرّاً وجهراً، وتقيةً وعلانية، وتُشلي أسنة الخوارج وألسنتهم، وتُغري الزبيريين بالخلافة، وأصحاب المختار بالفتنة، وتُطمع أصحابَ المطامح بالمغامرة، وتعبّر عن آراء هؤلاء وأولئك برسائلَ يتبادلُها زعماؤهم، أو يُرْسلونها إلى الأمويّين من خلفاء وأمراء.

١) رسائل الشيعة

كنا قد بَسَطْنا القولَ في آراء الشيعة السياسية حينما تحدثنا عن نشأة الأحزاب وعن اختلافها في الخلافة، وتنازعها عُرْوةَ الحكم في كتابيْنا: «الشعر في العصر الأموي» و«الشعراء في العصر الأموي». ثم رأينا في الباب الأول من

(١) التعازي والمراثي/ ١٣٣.

هذا الكتاب أن نُجْمل فيه ما فصَّلنا في سابقيْه، فلا مسوِّغ إذن للخَوْض مَرَّة أخرى فيما وفَّيْناه حقَّه من البحث. وحَسْبُنا ههنا أن نشير إلى ما وَرَد من آراء الشيعة وزعماء الأحزاب الأخرى فيما كتبوا من رسائل، أيّاً كان المرسِلُ والمرسَلُ إليه.

بعد أن آل الأمر إلى معاوية، أرسل إليه الحسن بن علي - ﷺ - رسالة مفصّلة توضّح حق الحسن في الخلافة، وتدعو معاوية إلى مبايعته، وتبيِّن آراء الشيعة في السياسة. بدأ الحسن رسالته بالحديث عن فضل النبيّ ﷺ على الناس كافة، وعلى العرب خاصة، وعلى قريش - وبينهم بنو أمية ومعاوية - بصورة أخصّ، فقال[١]:

«أمَّا بعدُ، فإن الله، تعالى عزّ وجلّ، بعث محمداً، صلى الله عليه وسلم وآله، رحمة للعالمين، ومنَّةً على المؤمنين، وكافَّةً إلى الناس أجمعين ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٣٦/ ٧٠]، فبلَّغ رسالات الله، وقام على أمر الله، حتى توفّاه الله غير مقصِّر ولا وانٍ[٢]، حتى أظهر الله به الحقّ، ومَحَق به الشرك، ونصر به المؤمنين، وأعزَّ به العرب، وشرَّف به قريشاً خاصّة».

بعد هذه المقدمة أخذ الحسن يبيِّنُ حقَّ الهاشميّين في الخلافة، ويظاهر هذا الحقَّ بالحجج الدامغة، لكنه في الوقت نفسه لم ينكر خلافة الصدّيق والفاروق - ﷺ - بل أقرَّهما على ما نهجاه في حكم المسلمين، حفاظاً على وحدة الأُمَّة من الفُرقة، وصوناً للدين من المفسدين، فقال:

«وقد تعجَّبْنا لتوثُّب المتوثّبين علينا في حقِّنا وسلطان نبيِّنا - صلى الله عليه وآله - وإن كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام. فأمسكنا عن منازعتهم مخافةً على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب بذلك مغمزاً، يثلمونه[٣] به، أو يكون لهم بذلك ما أرادوا به من فساده».

وفي خاتمة الرسالة دعا الحسنُ معاويةَ إلى مبايعته، وإلى الرجوع عن الباطل، والتوبة من الذنب، وحمَّله تبعات الفِتنة، وإراقة الدماء، ثم هدَّده بأن

(١) الوثائق السياسية/ ٩٠.
(٢) ضعيف، مُقصّر.
(٣) الثلمة: الكسر والخلل.

يَزْحَفَ إلى قتاله إذا أصرَّ على الضلال، مُعْتمداً على الله، راضياً بحكمه، مُلْقياً على معاوية ما يتمخَّضُ عنه القتال من أهوال، فقال:

«فَدعِ التمادي في الباطل، وادخلْ فيما دخل فيه الناس من بيعتي. فإنّك تعلمُ أني أحقُّ بهذا الأمر منك عند الله، وعند كلّ أوَّابٍ[١] حفيظ، ومَنْ له قلب منيب[٢]، واتّق الله، ودع البغيَ، واحقن دماء المسلمين. فوالله ما لك من خير في أن تلقى الله من دمائهم بأكثر ممَّا أنت لاقيه. فادخلْ في السلم والطاعة، ولا تنازع الأمرَ أهلَه، ومن هو أحقُّ به منك، ليطفئَ الله النائرة[٣] بذلك، وتجتمع الكلمةُ، وتصلح ذات البين. وإن أنت أبيْتَ إلّا التماديَ في غيِّك نهدْتُ إليك بالمسلمين، فحاكمتك ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٨٧]».

وبين البداية والنهاية لم ينس الحسن أن يُسَدِّد إلى معاوية سهام النقد ليثنيه عمَّا اعتزم، أو ليثني الناسَ عن مبايعته، فذكّره أباه أبا سفيان، وما كان منه ومن هند بنت عتبة في أحد، وفي الأحزاب لعلّه يرعوي، ويخلّي الخلافة لذويها، وأصحاب الحقّ فيها، فقال:

«فاليومَ، فليتعجَّب المتعجِّبُ من توثُّبك يا معاوية على أمرٍ لسْتَ من أهله، لا بفضلٍ في الدين معروف، ولا أثر في الإسلام محمود، وأنت ابنُ حزب من الأحزاب، وابنُ أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله، ولكنَّ الله خيَّبك، وسَتُردُّ فتعلم لمن عُقبى الدار. تالله لتلقين عن قليل ربَّك، ثم ليجزينَّك بما قدَّمتْ يداك، وما الله بظلام للعبيد».

أطلنا المكث عند هذه الرسالة لأمور:

أوّلُها أنها من إمام الشيعة أكبر الأحزاب المناوئة إلى الخليفة الأموي، أي: من رأس المعارضة إلى رأس الدولة.

وثانيها أنها استوفت العناصر الفكرية التي تحتاج إليها الرسالة السياسية الكاملة من مقدمة وعرض وخاتمة، ومن دفاع عن الحق في الحكم، وهجوم على من استأثر به.

---

(١) تائب، مطيع، مُسبّح.
(٢) تائب، ملازم الطاعة.
(٣) الشر.

وثالثها أنها عبَّرت عن أفكارها بأسلوب واضح صريح لم تَشُبْهُ شائبةٌ من مصانعة أو تقية، فوقَفَتْنا على المعارضة السياسية: أسبابها، وحججها، ومسوِّغاتها، وغاياتها بلا مواربة.

ورابعها أنها استلهمت الفكر السياسي من المصادر الإسلامية ومن التراث العربي، ومن التاريخ الذي عايشه كاتب الرسالة، لا من الفكر السياسي اليوناني الذي ألصق ببعض الرسائل السياسية إلصاقاً متكلّفاً، استناداً إلى جمل وألفاظ وآراء يتساوى الناس في معرفتها، ولا يتفرّد بها شعب واحد.

والخامس - وهو ناجم عن الرابع أو موضِّح له - أنها أتت حافلةً بالأفكار السياسية الدينية من بدايتها إلى نهايتها، حتى إنك لتردُّ كثيراً من عباراتها إلى آي الذكر الحكيم إمَّا بمعانيها ومبانيها معاً، وإمَّا بالمعنى كله والمبنى جُلِّه، وإمّا بأبعاضٍ من الآيات، والأبعاضُ تذكّرك الأصولَ التوامَّ، نحو:

رحمة للعالمين/ وكافّة إلى الناس/ لينذر من كان حيّاً ويحقّ القول على الكافرين/ فبلغ رسالات الله/ لمن عُقبى الدار/ ليجزينك بما قدَّمت يداك/ وما الله بظلام للعبيد/ وعند كلّ أوَّاب حفيظ/ له قلبٌ منيب/ حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

ليس لك أن تعجبَ من انحسار الأضواء القرآنية عن رسالتيْ سالم وعبد الحميد، وانتشارِها على رسالة الحسن، فتقول: الانحسارُ هناك دليلٌ على طغيان الفكر اليوناني، والانتشار هنا برهانٌ على سلطان البيان القرآني. إن رسائل العصر الأمويّ كلها كانت متأثّرة بالكتاب المنزل على درجات متفاوتة، وتفاوتُها ناجمٌ عن قرب الكاتب من الأسرة النبوية، والثقافة الإسلامية أو بعده عنهما. والحسنُ رضي الله عنه ابنُ عليّ وفاطمة رضي الله عنهما، وسبطُ رسول الله ﷺ، لم تفارق أذنيه وقلبَه وشفتيه آياتُ الذكر الحكيم من ولادته إلى وفاته، فإذا كتب أو أملى لم يَجْرِ قلمُه، ولم يَلْهَجْ فمه بغير ما سمع من أبويه وجدِّه.

والحقُّ أن قلب الحسن وعَقله لم يتأثّرا بالقرآن تأثراً روحيّاً وبيانيّاً، وحسب. وإنما تأثرا به تأثُّراً عمليّاً رَسَما له مسلكه، فبغَّضا إليه الدنيا، وزهّداه في المناصب، وأقنعاه بأنَّ دماء المسلمين أعظمُ من الخلافة، فلم يقاتل في سبيل الظفر بها. قال الزركلي في ترجمته:

«هال الحسنَ أن يقتتلَ المسلمون، ولم يستشعر الثقةَ بمن معه، فكتب إلى معاوية، يشترطُ شروطاً للصلح، ورضي معاوية. فخلع الحسنُ نفسَه من الخلافة، وسلَّم الأمر لمعاوية في بيت المقدس سنة ٤١هـ. وسُمّيَ هذا العامُ (عام الجماعة) لاجتماع كلمة المسلمين فيه. وانصرف الحسنُ إلى المدينة حيث أقامَ إلى أن توفي مسموماً في قول بعضهم سنة ٥٠هـ».

وبعد موته رأى الشيعةُ أنهم أصبحوا في حلّ من هذا الخلع، وعادوا إلى المطالبة بحقّ الهاشميين في الخلافة، وأخذت الرسائل التي يتبادلونها أو يكتبونها للحسين بن علي ﷺ تلهجُ بهذا الحق.

كتب جعدة بنُ هبيرة إلى الحسين بعد وفاة الحسن يقول[١]:

«أمّا بعدُ، فإنَّ مَنْ قِبلَنَا من شيعتك[٢] متطلعةٌ أنفسُهم إليك، لا يَعْدِلون بك أحداً، وقد كانوا عرفوا رأيَ الحسن أخيك في دفع الحرب، وعرفوك باللين لأوليائك، والغِلظة على أعدائك، والشدَّةِ في أمر الله. فإن كنتَ تحبُّ أن تطلبَ هذا الأمرَ، فاقدمْ علينا، فقد وطَّنَّا[٣] أنفسَنا على الموت معك».

فلمّا مات معاوية بن أبي سفيان [سنة: ٦٠هـ] وصار الأمر إلى ولده يزيد خُيِّل إلى الشيعة أنهم قادرون على انتزاع الخلافة من يزيد بالحقّ الذي يعترف به المسلمون، وبالقوة التي يُجنّدها الشيعة، وبين أيديهم أربعُ حجج يظاهرون بها حقَّهم في الانتقاض، وحقَّ الحسين في الخلافة:

أُولاها أن الحسينَ لم يتنازلْ عن حقّه. والثانيةُ أن من تنازل له الحسن قد رحل، ورحل التنازلُ معه. وثالثتُها أنه لم يكن في يزيد من المناقب والسجايا ما يرقى به إلى الخلافةَ. ورابعُها أن بين جلَّة الصحابة وصفوة التابعين مَنْ أنكر على معاوية أخذَ البيعة ليزيد، أو مَنْ أُكْرِهوا على مبايعته. وأبرزُهم عبادلة قريش: عبدُ الله بن جعفر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير.

تتراءى لك هذه الحججُ في تضاعيف الرسائل التي كتبها زعماءُ الشيعة ودعاتُهم إلى الحسين، يُصَرِّحون بها مرةً، ويلمِّحون إليها مرةً، لكنّها كانت

(١) الأخبار الطوال/ ٢٢١.
(٢) يريد: شيعتك من أهل الكوفة.
(٣) وطّنّا أنفسنا: حملناها وألزمناها.

كافيةً لإثارة المتردِّدين، وتشجيع المتخاذلين، وإيغارِ القلوب على يزيد، واستقدامِ الحُسَين من الحجاز إلى العراق. أي للانتقال من التفكير النظريّ والدعوة السريّة أو العلنية إلى التطبيق العمليِّ، والبيعة للحسين بالخلافة، والخروج على من يُوَلِّيهم الأمويون حكم العراق.

تتراءى لك هذه الأفكارُ والحجج في رسالة بَعَث بها إلى الحسين رضي الله عنه أربعةٌ من زعماء الشيعة في الكوفة بعد وفاة معاوية، وانتقال الخلافة إلى ابنه يزيد. وهم: سليمانُ بن صُرَد، والمسيّبُ بن نَجَبَة، ورفاعةُ بن شدَّاد، وحبيبُ بنُ مظاهر، وإليك نصَّ الرسالة[١]:

«سلامٌ عليك، فإنّا نحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أمَّا بعدُ، فالحمد لله الذي قَصَم[٢] عدوَّك الجبَّار العنيدَ الذي انتزى[٣] على هذه الأمة، فابتزَّها[٤] أمرَها، وغَصَبها فَيْئَها[٥]، وتأمَّر عليها بغير رضى منها. ثم قتل خِيارَها، واستبقى شِرارها، وجعل مالَ الله دُولةٌ بين جبابرتها وأغنيائها. فَبُعْداً له ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

إنه ليس علينا إمامٌ، فأقبل، لعلَّ الله أن يجمعنا بك على الحقّ، والنعمانُ بن بشير في قصر الإمارة لَسْنا نجتمعُ معه في جمعة، ولا نخرُجُ معه إلى عيد. ولو قد بَلَغَنا أنَّك قد أقبلتَ إلينا أخرجْناه حتى نُلْحِقَه بالشام، إن شاءَ الله. والسلامُ ورحمة الله عليك».

إذا أنعمت النظر في ثلاثِ رسائل أو أربع ممَّا كتب أهلُ البيت وأشياعُهم استطعت أن تستخلص منها آراءهم السياسية، وحُججهم في الدفاع عن حقّهم في الخلافة. وإذا أرسلت طرفك في عشر منها كتبت في أزمنة متلاحقة من بداية العصر الأموي إلى نهايته استطعت أن تخرج منها بأحداث تؤرِّخ تطوُّر الصراع بين الهاشميّين والأمويِّين، وتصوِّر ما اعْتَوَر هذا الصراع من ارتداع واندفاع، وتقيّة وعلانية، ومساومة ومقاومة.

---

(١) الوثائق السياسية/ ١٩٢.
(٢) كسر.
(٣) توثب.
(٤) سلبها.
(٥) غنيمتها التي حصلت عليها من حرب.

بعد مقتل الحسين - ﵁ - أرسل سليمانُ بن صُرَد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان في المدائن رسالة تحلِّل أهمَّ الأحداث في تاريخ الشيعة، وأهمُّها مقتلُ الحسين وما نجم عنه. ذكر في هذه الرسالة أن الحسين لم يأت العراق إلَّا تلبيةً لدعوةٍ تلقَّاها، ولم يقاتلْ إلّا بعدما أغراه أنصارُه في القتال، ثم نكصوا على أعقابهم. فلمَّا حاول الرجوع قطع عليه أعداؤه الطريق، فكانت تبعةُ من خذلوه فيما فعلوه كتبعة من قتلوه. قال ابن صرد[١]:

«... إن أولياءَ الله إخوانكم وشيعة آلِ نبيّكم نظروا لأنفسهم فيما ابْتُلُوا به من أمر بنت نبيّهم الذي دُعيَ فأجاب، ودعا فلم يُجَبْ. وأرادَ الرجعة فحُبِسَ، وسألَ الأمانَ فمنع، وترك الناس، فلم يتركوه، وعَدَوْا عليه، فقتلوه، ثم سلبوه، وجرَّدوه ظلماً وعدواناً، وغرَّة بالله وجهلاً. وبصبر الله ما يعملون، وإلى الله ما يرجعون ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٢٧]».

والفرقُ بين الفريقين أنَّ قاتليهِ لا أملَ لهم في التوبة، ولا نجاةَ لهم من العقوبة، وأنَّ خاذليه على التوبة قادرون، وأوَّلُ التوبة الندمُ، والإقرارُ بالذنب، وآخرُها التكفيرُ عن التقصير بالتضحية، وغسلُ النفس من أوضارها بالثأر من قَتَلة الحسين ﵁، ثمَّ بردِّ الحقِّ إلى أهله. قال ابن صرد:

«فلمّا نظر إخوانكم وتدبَّروا عواقبَ ما استقبلوا رَأَوْا أنْ قد خَطِئوا بخذلان الزكيِّ الطيِّب خَطَأً كبيراً، ليس لهم منه مخرجٌ ولا توبة دون قتل قاتليه، أو قتلهم حتى تفنى على ذلك أرواحُهم».

ثم ضربَ للتوَّابين منهم والأوَّابين مَوْعِداً لا يُخْلفونه، جعل زمانه مطلعَ ربيعٍ الثاني من سنة خمس وستين، ومكانَه النُّخَيْلَةَ، وهي موضعٌ غربي الكوفة، فقالَ:

«فقد جَدَّ إخوانكم، فجدُّوا، وأَعدُّوا واستعدُّوا. وقد ضربنا لإخواننا أَجَلاً يوافوننا إليه، وموطناً يَلْقَوْننا فيه. أمَّا الأجلُ فغرَّةُ ربيعٍ الآخر سنةَ خمسٍ وستين، وأمَّا الموطنُ الذي يلقوننا فيه فالنُّخَيْلَة».

كان الأمويّون والزبيريون يعلمون علم اليقين أن لأهل البيت في نفوس المسلمين كافة من المودة الصادقة والتقدير العميق ما ليس لخليفة من طبقة

(١) الوثائق السياسية/ ٢٣١.

يزيد، قد يملك أعناق الناس، ولا يملك قلوبهم، وما ليس لمعارض من وزن عبد الله بن الزبير له مجد وشرف لا يقاسان بمجد الحسين وشرفه، وبمجده وشرفه قد يبسط سلطانه على الحجاز والعراق بساعد أخيه مصعب وسيفه، ولا يبسطه على الأفئدة الخافقة بحبّ الهاشميين وإجلالهم.

لهذا السبب كان كلُّ حزب حاكم أو معارض حريصاً على أن يتألَّف أهلَ البيت، ليظفر منهم بالتأييد الذي يُرجِّحُ كفَّته، ويرسِّخ مكانته. وهذا الحرص حمل الزبيريين والأمويين على أن يساوموا أهل البيت ويماكسوهم.

عبدُ الله بن الزبير أرسل إلى عبد الله بن عباس يستجديه التأييدَ والبيعة، فرفض. فلما انتهى خبرُ الرفض إلى يزيد خُيِّل إليه أنه يستطيعُ أن يشتريَ الشيخَ الهاشميَّ بالمال الأموي. فأرسلَ إليه رسالة يُمنّيه فيها الأماني، ويُغْدق الوعود، ويلوِّح بالثراء وحسن الجزاء، فردَّ عليه ابن عباس ردّاً مطولاً، يصوِّر فيه اصطراع المبادئ والمصالح، ويذكِّر القارئَ السياسةَ النفعية التي رسم خطوطَها معاويةُ في خطبته الأولى، ورفضَها أهلُ البيت. ويذكّر يزيدَ بما ارتكب أجنادُه في فاجعة الحسين من تقتيل وتنكيل.

في بداية الرسالة فنَّد ابنُ عباس ما ادّعاه يزيدُ من وداد يربطه به، وحقَّر ما يَعِدُه به، وذكَّره أن ما غَمَط من حقوق الهاشميّين أضعافُ ما يُمنّيهم، وأنه لن يكون معه على ابن الزبير، فكلاهما على باطل. قال ابن عباس[١]:

«... وزعمت أنك لست بناسٍ ودّي. فلعمري ما تُؤْتينا ممَّا في يديك من حقِّنا إلّا القليل، وإنك لتحبسُ عنّا منه العريضَ الطويل. وسألتني أن أحثَّ الناس عليك، وأخذلهم عن ابن الزبير، فلا. لا سروراً، ولا حبوراً».

وراح ابنُ عباس يصوِّر مصرع الحسين المروِّع تصويراً مُرْعباً، لا يجرؤُ على أن يخاطب به الخليفة إلَّا مَنْ كان واثقاً بنفسه، مؤمناً بحقِّه، معتقداً أنه أشرفُ من المُخاطَب وأعظم، لا مُساويه أو مدانيه. فلا يتَّضِعُ ولا يَتَخشَّع، بل يُدِلُّ ويترفَّع، ويمنُّ عليه بأنَّ تسامح الهاشميين هو الذي بوَّأه مكانةً لا يستحقُّها، ولم يُخلق لها:

«لا تحسبَنّي - لا أبا لك - نسيتُ قتلَكَ حُسَيْناً وفتيانَ بني عبد المطلب

(١) الوثائق السياسية/ ٢١١.

مصابيحَ الدجى، ونجومَ الأعلام. غادرهم جنودُك مُصَرَّعين في صعيد، مرمَّلين بالتراب، مسلوبين بالعراء، لا مكفَّنين، تسفي عليهم الرياح، وتُعاورهم[١] الذئاب، وتفشي[٢] بهم عُرْج الضباع، حتى أتاحَ الله لهم أقواماً لم يشتركوا في دمائهم، فأجنُّوهم[٣] أكفانَهم، وبي وبهم، والله، عَزَزْتَ، وجلستَ مجلسَكَ الذي جلستَ يا يزيدُ».

ومن تصوير الفاجعة انتقل ابنُ عبَّاس إلى المشاركين فيها: الآمرِ والمأمور، والمحرِّض والقاتل، وفضح أصل زياد ابن أبيه، وسفّه إلحاقه بأبي سفيان، ورمى معاوية بإتيان ما نهى عنه النبيُّ ﷺ في حجة الوداع، حينما قال[٤]: «من ادَّعى إلى غير أبيه، أو تولّى غير مواليه، فعليه لعنةُ الله المتتابعة إلى يوم القيامة». قال ابن عباس:

«.. وما أنْسَ من الأشياء، فلستُ بناس تسليطَكَ عليهم الدعيَّ العاهرَ بن العاهر، البعيد رحماً، اللئيمَ أباً وأمّاً، الذي في ادّعاء أبيك إياه ما اكتسب به إلّا العارَ والخزيَ والمذلَّة في الآخرة والأولى، وفي الممات والمحيا. إن نبيّ الله قال[٥]: الولد للفراش وللعاهر الحَجَر».

وأنكر على معاوية ويزيد حقَّهما في الخلافة، واتَّهمهما بالحسَد واللدد وتحريض السفهاء على بني هاشم لانتزاع حقهم، فقال:

«.. والله بايعت أباك، وإني لأعلم أنَّ ابن عمي وجميعَ بني أبي أحقُّ بهذا الأمر من أبيك. ولكنكم - معاشرَ قريش - كاثرتمونا، واستأثرتم علينا سلطانَنا، ودفعتمونا عن حقّنا. فَبُعْداً على من يجترئ على ظلمنا، واستغوى السفهاء علينا، وتولَّى الأمرَ دوننا، فَبُعداً كما بعدتْ ثمود وقومُ لوط وأصحابُ مَدْيَنَ، ومكذّبو المرسلين».

وختم ابنُ عباس رسالته بأشدَّ ممّا بدأها، إذْ هدَّدَ يزيدَ بمعارضة لا تعروها

---

(١) تتعاقب عليهم.
(٢) تنتشر.
(٣) ألبسوهم.
(٤) الجامع الصغير ٢/٩٠١، حديث صحيح.
(٥) الجامع الصغير ٢/١٠١٦، حديث صحيح.

مفاوضةٌ، ومقاومة لا تشوبُها مسالمةٌ ولا مساومة، وأنذره ميتةً مُخْزية، تُخرجه ممَّا هو فيه من مجد مزوَّر، ومُلْك مُسْتَلب، مُشيَّعاً في الدنيا بالذمّ والعار، ومُسْتَقْبَلاً في الآخرة بسوء المنقلب، لقتله أبناءَ الأنبياء، فقال:

«ولعمري، لئن كنت تُصبحُ وتمسي آمناً لجرح يدي، إني لأرجو أن تعظم جراحُك بلساني ونَقْضي وإبرامي. فلا يستقرُّ بك الجدل، ولا يمهلك الله بعد قتلك عِتْرةَ رسول الله إلا قليلاً، حتى يأخذَك أخذاً أليماً، فيخرجك الله من الدنيا ذميماً أثيماً. فعشْ، لا أبا لك، فقد - والله - أَرْداك عند الله ما اقترفْتَ، والسلامُ على من أطاعَ الله».

مَنْ يغضَّ الطرفَ عمَّا في الرسالة من سياسة، وينظرْ بعين الناقد إلى ما فيها من فنِّ الترسل يجدْها موسومةً بسمات أنجبتْها الأصالةُ والفحولة، ولم يصنعها الاحترافُ المتكلّف.

أُولى سماتها الإطالةُ، غير أن إطالتها من نمطٍ آخر يخالفُ النمط الذي تبدَّى في رسائل سالم وعبد الحميد.

إطالةُ ابن عبَّاس نجمتْ عن سرد الوقائع، وتصوير الفجائع، وتحليل النفوس، وفضح المكائد، وإطالة سالم وعبد الحميد نجمت عن الإسهاب والإطناب، وعرض المعنى الواحد بالمباني المتعدّدة.

وثانيةُ السمات أنها بنت الموهبة لا بنتُ الصنعة، فالصنعة الطاغية على رسائل الكتّاب الرسميين تتعمَّد السجع والمجانسة والمطابقة تعمُّداً، والموهبةُ تسترسل فيما تنشئ، لكنها قد تنتثر في تضاعيف الكلام شذرات من السجع والطباق، منها قول ابن عباس: «ما تؤتينا إلَّا القليل، وتحبس عنا العريض الطويل» وقوله: «لا سروراً ولا حبوراً» وقوله: «العاهر البعيد رحماً، اللئيم أباً وأمّاً» وقوله: «يأخذك أخذاً أليماً، ويخرجك ذميماً أثيماً» وقوله: «في الآخرة والأولى، وفي الممات والمَحْيا».

والثالثةُ عمقُ العواطف وصدقُها وتدفُّقها، وخاصّةً ما تعلَّق منها بمقتل الحسين وصحبه، وتحقير زياد ونسبه، وتهديد يزيد بالثأر في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

لا يُخطئُ مَنْ يزعم أن رسالة ابن عباس تُمثِّل تحدِّيَ القيم والشيم للابتزاز

والانتهاز، ونقمةَ الهاشميين على الأمويين، وغضبَ المسلمين عامّة، لا أهل البيت خاصّة على ما اقترف الحُكْمُ في سبيل الحفاظ على الملك. غير أن الأحداث التي أعقبت مقتل الحسين فثأَتْ وَقْدَة السخط، وأتاحت للمغامرة أن تساور الحق، وحملت المؤمن بحقه على أن يسالم المستأثر بالسلطان.

بعد موت يزيد [سنة: ٦٥هـ] أخذ كلُّ ثائر ومغامر يتودَّدُ إلى أهل البيت لا لكي ينصرهم، ويردَّ إليهم حقَّهم بل ليُضعف الأمويين بالتقوّي بهم، وليرقى سُدَّةَ الحكم على سُلَّم الدعوة إلى محمد بن الحنفية[١] [ت: ٨١هـ]. وأدرك الأمويّون ما يُكاد لهم، فلم يتجاهلوا ابنَ الحنفية، بل أَدْلَوْا بدلوهم مع الدلاء المتعدِّدة المتودِّدة. فما الرسائلُ التي تلقَّاها ابنُ الحنفية؟ وما ردُّه عليها؟

المختارُ بن أبي عبيد الثقفي - وهو من أكبر المغامرين في العصر الأموي - أرسل جيشاً إلى المدينة يتحدَّى به عبدَ الله بن الزبير، فانهزم شرَّ هزيمة، وقُتل أكثر جنده، وأُسْقط في يد المختار، فأرسل إلى ابن الحنفية رسالة[٢]، زعم فيها أنه ما أنفذ جنده إلى المدينة إلا دفاعاً عن أهل البيت، وعرض فيها أن يظاهر الهاشميين، مدَّعياً انطواءَه تحت جناحهم، وهو عند التحقيق الراغبُ في طيِّهم تحت جناحه، راغباً إليه أن يبارك مَسْعاه برسُل يوفدُهم إلى أهل المدينة، يشهدون بإخلاص المختار لأهل البيت. فإن استجاب أرسل إليه جيشاً آخر يظاهر الهاشميين وينتزع الحكم من أعدائهم.

لم يكن ابنُ الحنفية ليُخْدَع ببرق المختار الخُلَّب، وقلبه القُلَّب، وخلفَه تاريخٌ من تجاربَ موجعة، مرَّ بها الحسنُ والحسين، فانتبذَ مواعيد المختار، وأرسل إليه رسالة، تُعْلن موادعتَه الأمويين، واعتزاله القتال، وإيثاره العافية على التحدّي. قال ابن الحنفية في رسالته إلى المختار[٢]:

«أمَّا بعدُ، فإن كتابك لمَّا بلغني قرأتُه، وفهمت تعظيمَك لحقّي، وما تنوي به من سروري. وإن أحبَّ الأمور كلِّها إليَّ ما أطيعُ الله فيه، فأَطِع الله

(١) محمد بن علي بن أبي طالب، والحنفية أمه هي خولة بنت جعفر، وكان واسع العلم، ورعاً، شجاعاً، وكان المختار يدعو الناس إلى إمامته (تظاهراً) ويزعم أنه المهدي المنتظر

(٢) تاريخ الطبري ٧/ ١٣٥.

ما استطعتَ، فيما أعلنْتَ وأسررت، واعلم أني لو أردتُ القتالَ لوجدتُ الناس إليَّ سراعاً، والأعوانَ لي كثيراً. ولكني أعتزلُهم، وأصبرُ حتى يحكمَ الله لي، وهو خيرُ الحاكمين».

وعن القوس نفسِها نَزَع عبدُ الملك بنُ مروان فيما أرسلَ إلى ابن الحنفية، غير أنه كان أحسنَ نيةً، وأنبلَ طويَّة من المختار، لأنه كان يخاطبُ ضعفاً بقوة، وحقّاً متوقَّعاً بسلطةٍ واقعة، فلا تملكُ - أيّاً كان رأيُك في الأمويين - إلَّا أن ترى في موقفه مخايلَ الرحمة والمروءة. قال عبد الملك - وقد بلغه أن ابن الزبير عنف بابن الحنفية وأساء معاملته لعدم مبايعته إياه[١] -: «إنه قد بلغني أن ابن الزبير قد ضيق عليك وقطع رحمك واستخفّ بحقّك حتى تبايعه، فقد نظرتَ لنفسك ودينك وأنت أعرف به حيث فعلتَ ما فعلت، وهذا الشام فانزل منه حيث شئت، فنحن مكرموك، وواصلو رحمك، وعارفو حقك».

لم يكن محمد بن الحنفية دون عبد الملك نبالة ونخوة، ومهادنة وملاينة، بل قابل الرسالة بأكرم منها، وتلقى الموادعة بالمبايعة، وأمسك عن مناوأة الخليفة. لكنه ألحّ في طلب الأمان، وحذَّر من المكر والغدر، لئلا يناله من عبد الملك ما نال الحسين من يزيد، فقال في رسالته[٢]:

«أما بعد، فإني لمّا رأيت الأمة قد اختلفت اعتزلتهم. فلمّا أفضى هذا الأمر إليك، وبايعك الناس، كنت كرجل منهم، أدخل في صالح ما دخلوا فيه. فقد بايعتك، وبايعت الحجّاج لك، وبعثت إليك بيعتي، ورأيت الناس قد اجتمعوا عليك. ونحن نحبّ أن تؤمننا، وتعطينا ميثاقاً على الوفاء. فإن الغدر لا خير فيه، فإن أبيت، فأرضُ الله واسعة».

وخلاصةُ ما يخلصُ إليه الباحثُ في رسائل الشيعة السياسية أنَّها تتضمَّنُ آراءهم في الحُكْم، وتدافعُ عن حقّ الهاشميين في الخلافة، وتصوِّرُ ما أصابَهم من جَوْر، وترصُدُ ما اعترى مواقفَهم من تغيُّر، وتعبِّر عن مناقبهم الرفيعة، وعن إجماع الأمة على حبِّهم وتقديرهم، سواءٌ في ذلك مَنْ شايع ومن بايَعْ، ومن جاهرَ ومن اتَّقى.

---

(١) الوثائق السياسية/ ٣٠٥.

(٢) المرجع السابق/ ٣٠٦.

٢) رسائل الخوارج

لم يَظْهَر الأمويّون على الهاشميين بدهاء معاوية وثرائه وسيوف المطالبين بدم عثمان، وإشلاءِ زياد ابن أبيه على شيعة العراق، وحسب. وإنَّما ظهروا عليهم - إلى جانب الأسلحة السابقة - بسلاحين آخرين، وهما تخاذلُ السيوف التي أغمدها أنصارُ عليّ عن نصرته في الملمّات، وشراسةُ السيوف التي شهرها عليه الخوارج بعد صفّين.

لقد شغلتْ سيوفُ الخوارج عليّاً - كرَّم الله وجهه - بمعارك جانبية فُرِضتْ عليه، فخاضَها مُضطرّاً، حتى لحق بجوار ربه على شباة سيف غادرٍ من هذه السيوف، لكنَّه بعد أن أدَّب الخوارجَ وفتك بهم، وكاد يقضي عليهم قبل أن يقضوا عليه.

لقد ورث معاوية عن علي بن أبي طالب معارضةً من جماعتين: جماعةٍ مؤمنة القلوب مُتخاذلة السيوف، وهي شيعة العراق، وجماعةٍ كانت سيوفها أفصحَ من ألسنتها في التعبير عمَّا تؤمن به، وهي جماعة الخوارج، لكن إيمانها بشعارها: (لا حكم إلا لله) لم يكن يومَ آلت الخلافة إلى معاوية، قد تحول إلى مبادئَ نظرية واضحة، وأفكار سياسية تدعو إليها، وتتجلّى فيما كتبت من رسائل قليلة في عهد معاوية.

من هذه الرسائل القليلة رسالة كتبها المستورد بن عُلَّفة إلى حاكم المدائن سمّاك بن عبيد العَبْسيِّ حينما منعه أن يعبر الفرات. والمستورد كما قال الزركلي في ترجمته: «من كبار الشجعان الخطباء الدهاة من الإباضية، خرج على عليّ بن أبي طالب بعد وقعة النهروان في جماعة من أهل الكوفة... وبايعه أصحابه وخاطبوه بأمير المؤمنين».

تخيَّرْنا هذه الرسالة لأنها، على قصرها، تكشفُ عن بعض الجوانب من طبيعة الخوارج، وتشيرُ إلى سياستهم النزَّاعة إلى العُنْف، وتذكُر المسوِّغات التي حَمَلَتْهم على مخالفة الأمويين، وهي احتجانُهم الأموالَ، والحكمُ بغير ما أنزل الله، ومجانبةُ العدل. وتتضمَّنُ الاعترافَ بخلافة أبي بكر وعمر، وإنكار ما فعله عثمانُ وعليٌّ، وتُصرُّ على قتال مَنْ يخالفُ الخوارج. وإليك نصَّ الرسالة[١]:

(١) الوثائق السياسية/ ١٥٤.

من عبد الله المستورد أمير المؤمنين إلى سمّاك بن عبيد.

أمّا بعدُ، فقد نقمنا على قومنا الجَوْرَ في الأحكام، وتعطيلَ الحدود، والاستئثارَ بالفيء، وإنا ندعوك إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ، وسنة نبيّه ﷺ، وولاية أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والبراءةِ من عثمان وعليّ لإحداثهما في الدين، وتركهما حكمَ الكتاب. فإنْ تقبلْ فقد أدركت رشدَك، وإلّا تقبلْ فقد أبلغنا بالإعذار إليك. وقد آذنّاك بحربٍ، فنبذْنا إليك على سواء، إنَّ الله لا يُحبُّ الخائنين».

قتل المستورد بن عُلَّفة [سنة ٤٣هـ] والخوارج لمّا يتفرقوا شيعاً، وكان - على نزوعه إلى القتال - إباضيّاً، والإباضيةُ من أميل الفرق الحرورية المقاتلة إلى المسالمة. وبعد مصرعه ظهرت فرق أشدّ نزوعاً من الإباضية إلى مقاتلة الأمويين، أبرزها ثلاث: الأزارقة، والنجدات، والصفرية.

أمَّا الأزارقةُ فإنهم ينتسبون إلى نافع بن الأزرق الحنفيّ البكريّ الوائلي [قتل: ٦٥هـ]. كان - والقولُ للزركلي -: «أميرَ قومه وفقيهَهم. صحب أوَّلَ أمره عبدَ الله بن عبَّاس... كان يذهبُ إلى سوق الأهواز، ويعترضُ الناس بما يُحيِّرُ العقلَ... فلمَّا ولي عبيد الله بن زياد إمارةَ البصرة سنة ٥٥هـ اشتدَّ على الحروريين، وقتل زعيمَهم مرداسَ بن حدير، فتوجَّهوا مع نافع إلى ابن الزبير في مكة، وناقشوه في حكم الخلفاء الأربعة، ولم يرضوا رأيه في عثمان، فانفضُّوا عنه». ثم رجعوا إلى البصرة، وأمَّروا عليهم نافعاً، فخرج بهم، وقاتل حتى قُتل في الأهواز يومَ دولاب.

ربَّما كان ابنُ الأزرق أوسع الخوارج معرفة، وأبرعهم مجادلةً، وأقدرَهم على الصَّدْع بما اعتقد الخوارج. وعلمُه حمله على أن يراسل ابنَ الزبير بعد أن فارقه، فأرسلَ إليه بعد مصرع الحسين رضي الله عنه، وموت يزيد [سنة ٦٥هـ] رسالةً يتبرَّأُ فيها منه، ويرميه بأنه هادن الظالمين، وتولَّى الكفارَ. وهو يعني بالظالمين والكفّار كلَّ من لم يَرَوْا رأيَ الخوارج من المسلمين. قال نافع في مطلع رسالته[1]:

«أمّا بعدُ، فإني أحذركَ من الله ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٠]. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ

(١) الوثائق السياسية/ ٢٨٠.

نَفْسَكُمُ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٨]. فاتقّ الله ربَّك، ولا تَتَولَّ الظالمين، فإن الله يقولُ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ٥١] وقال: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٨]».

إن احتكام نافع في رسالته إلى عقله وجدله، وإلى براعته في مناقشته هو الذي أخرجه من الجماعة، وجعله حرباً عليها، وأوْدَى بحياته آخر المطاف، ويتجلَّى لك هذا الاحتكام فيما أفضى إليه رأيُه بعد النظر في مواقف الصحابة من عثمان وعليّ يومَ الفتنة الكبرى، وفي تقليبه مواقفهم على أوجه متعدِّدة، ثم في استقراره بعد التقليب والتقلُّب، والجَرْح والتعديل على عقيدةٍ راسخة، لا يساورها عنده أدنى رَيْب، وهي أن يُكَفّر مَنْ لم يَرَوْا رأيه الذي تهدَّى إليه بالمراء، وأن يقاتلهم ويستأصلَهم قبل أن يستفحلَ كفرُهم.

قال نافع لابن الزبير: «وقد حضرت عثمانَ يَوم قُتل،فَلَعَمري لئن كان مظلوماً لقد كَفَر قاتلوه وخاذِلوه. وإن كان قاتلوه مُهْتدين -وإنهم لمهتدون- لقد كفر مَنْ تولَّاه ونصره. ولقد علمتَ أن أباك وطلحة وعليّاً كانوا أشدَّ الناس عليه، وكانوا في أمره بين قاتلٍ وخاذل. وأنت تتولَّى أباك وطلحة وعثمان، فكيف ولايةُ قاتلٍ متعمِّد ومقتولٍ في دين واحد؟ ولقد ملَكَ عليٌّ بعده، فنفى الشبهاتِ، وأقام الحدود، وأجرى الأحكام مجاريَها، وأعطى الأمورَ حقَّها فيما عليه وله، فبايعه أبوك وطلحةُ، ثم خلعا بيعته ظالميْنِ له. وإنَّ القولَ فيك وفيهما لكما قال ابنُ عباس: إن يكن عليٌّ في وقت معصيتكم ومحاربتكم له كان مؤمناً، لقد كفرتم بقتال المؤمنين وأئمةِ العدل، وإن كان كافراً كما زعمتم، وفي الحكم جائراً، فقد بُؤْتم بغضب من الله لفراركم من الزحف. ولقد كنتَ له عدوّاً، ولسيرته عائباً، فكيف تولَّيتَه بعد موته؟».

مَنْ يقرنْ رسالة نافعٍ هذه برسالة المستورد السابقة- وبينهما عشرون سنة- يقفْ على ما أنجزه الخوارجُ من تطوير في رسائلهم السياسية. وأبرزُ ما برز فيه تطويرهم سمتان: أولاهما فكريةٌ وهي أن نافعاً راح يستعرضُ تاريخ الأحداث التي عَصَفت بالخلافة الراشدة، ويحلِّل حكم كلِّ خليفة، ويُفْضي به التحليلُ إلى الاعتراف بخلافتي الشيخين: أبي بكر وعمر، وإلى إنكار سياسة عثمان من بدايتها إلى نهايتها، وإلى الإقرار بسياسة عليّ منذ تولَّى الخلافة إلى أن قبل التحكيمَ، وبنى على تحليل ما حلَّل تكفير من كفَّر من جلَّة الصحابة والتابعين.

والسمة الثانية أدبيةٌ، جوهرُها الإمعانُ في الأسلوب الجدلي الذي يتحوّل إلى مُماراة في المقارنة بين الآراء. وهذه السمةُ من أخطر ما امْتُحِنَ به الخوارجُ في العصر الأمويّ، والمعتزلةُ في العصر العباسيّ، وأصلُ المراء -والقولُ لابن منظور- «أن يستخرج المرءُ من مُناظره كلاماً، ومعاني الخصومة وغيرها من: مريت الشاةَ إذا حلبْتَها، واستخرجْتَ لبنها». وأهلُ الورع خوَّفوا أهل الكلام من التمادي في المراء، فقالوا: لا يصيبُ المرءُ حقيقة الإيمان حتى يتركَ المراء، وهو مُحقٌّ. ووصف الصحابةُ النبيَّ ﷺ، فقالوا[1]: إنه لا يشاري ولا يماري. وجاء في الحديث: «مَنْ ترك المراء، وهو مُبْطلٌ بنى الله له بيتاً في رَبَض الجنة. ومن ترك المراءَ،وهو مُحقٌّ بنى الله له بيتاً في أعلى الجنة».

ونافع بن الأزرق،لإسرافه في الجدال، وفي تحكيمه العقلَ في النقل، استطاعَ أن يرقى بالرسالة السياسية إلى ذروةٍ لم يبلغْها من سبقوه من مُتَرسِّلي الخوارج، لكنها ذروةٌ أشرفت به على هاوية سحيقة، إذْ جنحَ، وهو يتَّهم غيرَه بالجنوح. ومع ذلك كلِّه، فأنت، وإن أنكرتَ عليه ما اعتقد كلَّه أو جلَّه، لا تستطيعُ أن تنكر عليه أنه التزم ما دعا إليه، وأخلصَ فيما دعا، وقُتل في سبيل ما التزم.

ونحن لا نعني بما وصفنا به نافعاً من تحكيمه العقل في النقل أنه زهد في المنقول، أو أعرض عن كتاب الله، فقد رأيت كيف ظاهر جلَّ ما دعا إليه بحجج من الوحي المنزل. وإنما نعني أنه كان يفسّر ما يحتجّ به من النصوص المقدّسة على ضوء ما اعتقد من آراء، فينزلق إلى مهواة سحيقة، يستبيح فيها دماء المسلمين، ولو كانوا أطفالاً لَمّا يحتلموا، ولَمّا يبلغوا سنّ التكليف. ويتجلّى ذلك في رسالة أرسلها إلى نجدة بن عامر الحنفي.

كان نجدة من أتباع نافع، لكنه، كما يبدو من رسائلهما المتبادلة، أنكر على نافع بعض ما اعتقد فانشق عنه، وخرج إلى اليمامة، واستقرَّ في البحرين، وقُتل [سنة٦٩هـ]. ومن رسالة أرسلها إليه نافع تستطيع أن تستنتج أن نجدة هذا كان أزهد من زعيمه في سفك الدماء، وأقرب منه إلى الاعتدال، حتى إن الصَّحابة -وأبرزُهم عبدُ الله بن عمر- لم يكونوا يجدون أدنى حرج من الصلاة خلفه.

---

(١) لسان العرب/مرا، يشاري: يستشري بالشّر.

عَرَض نافع في بداية الرسالة ما أنكر عليه نجدةُ، فقال[١]: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعدُ، فقد أتاني كتابُك، تعظني فيه، وتذكِّرني، وتنصحُ لي، وتزجرُني، وتصفُ ما كنت عليه من الحقّ، وماكنت أوثره من الصواب، وأن أسأل الله أن يجعلني من الذين يستمعون القولَ، فيتَّبعون أحسنَه. وعبْتَ عليَّ ما دنْتُ به من إكفارِ القَعَدِ، وقتلِ الأطفال، واستحلال الأمانة، وسأفسّر ذلك إن شاء الله».

ومضى نافعٌ يفسِّرُ ما اجترح تفسيراً ملتوياً، ظاهره الصواب، وباطنه فيه العذاب. فزعمَ أن القَعَدَ- وهم من يَرَوْنَ رأيَ الخوارج ولا يُقاتلون قتالهم- وَجَب عليهم أن يُقاتلوا المرتدِّين، بعدما تفقَّهوا في الدين. فإن قَعَدوا كانوا كالذين تخلَّفوا عن الجهادِ مع رسول الله ﷺ. وزعم أن قَتلَ الأطفال يجتثُّ الكفر من جذوره وبذوره، وهو يُقاسُ على ما دعا به نوحٌ ربَّه من محق الكفار وذراريهم. وأمَّا استباحةُ الأموال فتقاسُ على استباحة الأنفس. ولو كان بين الخوارج وبقية المسلمين عهدٌ وذمة لما جاز أن تستباح أموالهم وأرواحهم، ولوجب صونها كما تصان أموال أهل الكتاب وأرواحهم.

قال نافع: «أمّا هؤلاء القَعَدُ فليسوا كَمَنْ ذكرت ممَّن كانوا بعهد رسول الله ﷺ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين، لايجدونَ إلى الهرب سبيلاً، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً. وهؤلاء قد فُقِّهوا في الدين، وقرؤوا القرآن، والطريقُ لهم نَهْجٌ واضح. وقد عرفت ما يقوله الله فيمن كان مثلَهم، إذ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٤/ ٩٧]. وقال: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/ ٨١]. وقال: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: ٩/ ٩٠]. فخبَّر بتعذيرهم، وأنهم كذبوا الله ورسوله. وقال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/ ٩٠] فانظر إلى أسمائهم وسماتهم.

وأمّا أمرُ الأطفال فإن نبيَّ الله نوحاً كان أعرف بالله يا نجدةُ منّي ومنك. قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا

(١) الوثائق السياسية/ ٢٨٢.

يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح: ٧١/٢٦-٢٧]. وسمَّاهم بالكفر وهم أطفال، وقبل أن يولدوا. فكيف جاز ذلك في قوم نوح، ولا يجوزُ في قومنا؟ والله يقول: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُمۡ بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٤/٤٣]. وهؤلاء كمشركي العرب، لا تُقْبل منهم جزية، وليس بيننا وبينهم إلا السيفُ أو الإسلام. وأمّا استحلال الأمانات ممَّن خالف، فإن الله عزَّ وجلَّ أحلَّ لنا أموالهم كما أحلَّ لنا دماءهم. فدماؤُهم حلالٌ طلقٌ، وأموالهُم فَيءٌ للمسلمين. فاتَّقِ الله، وراجع نفسك، فإنه لا عذر لك إلا التوبة، ولا يَسَعُك خذلانُنا، والقعودُ دوننا، وتركُ ما نهجناه لك من طريقنا ومقالتنا. والسلامُ على من أمَرَ بالحقّ وعمل به».

على هذا النحو من الفهم المنحرف كانوا يفسِّرون كلامَ الله، فلا يُخامرهم أدنى شك في أنهم على حق حتى في قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق. قال أبو العباس المبرد[١]: «من طريف أخبارهم أنهم أصابوا مسلماً ونصرانياً، فقتلوا المسلم، وأوصوا بالنصراني، فقالوا: احفظوا ذمَّة نبيِّكم». ولَمّا وقف الناس على آرائهم عرفوا كيف يداورونهم ويحاذرونهم.

ذكر المبرد[٢] أن رأس المعتزلة واصلَ بنَ عطاء- وكان في رفقة- وقع في أيديهم وهم لا يعرفونه، فقالوا: «ما أنت وأصحابُك؟ قال: مشركون مستجيرون ليسمعوا كلامَ الله، ويعرفوا حدوده. فقالوا: قد أجرناكم. قال: فعلِّمونا. فجعلوا يعلمونه أحكامهم، وجعل يقول: قد قبلتُ أنا ومن معي. قالوا: فامضوا مصاحبين، فإنَّنا إخوانكم. قال: ليس ذلك لكم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾ [التوبة: ٩/٦]، فَأَبْلِغونا مَأْمَنَنا. فنظر بعضُهم إلى بعض، ثم قالوا: ذاك لكم، فساروا بأجمعهم حتى بلَّغوهم المأمنَ».

وسواءٌ أكنتَ مع الخوارج أم عليهم فيما اعتقدوا، وفيما أفضى إليه هذا الاعتقاد من التضادِّ، فأنت تُشفق عليهم ولا تحقد، ويحْزُنُك حالهم ولا يُسْخِطُك. وربَّما اغتفرتَ لهم شيئاً من انحراف المُعْتَقَد بأشياءَ من استقامة السلوك. ولو أنهم كانوا يبتغون الانغماسَ في المتارف لأحنقوك، لكنَّهم كانوا

(١) الكامل (مصورة مؤسسة المعارف بيروت) ٢/ ١٤٦.
(٢) الكامل ٢/ ١٢٢.

أكثر المسلمين عبادةً وأشدَّهم زهادةً، وأصدقهم في القتال وأحرصَهم فيه على أن يَقْتلوا ويُقْتلوا، على نحو يبلغ حَدَّ الأساطير. إن هذا التصوّر للحياة الدنيا، ولما بعد الحياة من موت وبعث، وحساب وعذاب هو الذي كان يحثُّهم على الخروج وانتباذ الدنيا وشهواتها.

تجدُ هذا التصوُّر في رسالة لصالح بن مسرَّح التميمي [قتل: ٧٦هـ] بعث بها إلى أتباعه من الخوارج، يبغِّض فيها إليهم الحياةَ، ويزيِّنُ لهم الموتَ في ساحة القتال، فيقول[١]: «....تيسَّرُوا -رحمكم الله- لجهاد هذه الأحزاب المتحزِّبة، وأئمة الضلال الظَّلمة، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء، واللحاق بإخواننا من المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة، وأنفقوا أموالَهم التماسَ رضوانِ الله في العاقبة، ولا تجزعوا من القتل في الله، فإن القتلَ أيسرُ من الموت، والموتُ نازلٌ بكم، غير ما ترجم الظنون، فمفرِّقٌ بينكم وبينَ آبائكم وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم، وإن اشتدَّ لذلك كرهُكُم وجَزَعكُم. ألَّا، فبيعوا الله أنفسَكم طائعين وأموالكم، تدخلوا الجنَّةَ آمنين، وتعانقوا الحور العين، جعلنا الله وإيَّاكم من الشاكرين الذاكرين الذين يهدون بالحق، وبه يعدلون».

وخلاصة الرأي في رسائل الخوارج السياسية أنَّها نمطٌ فريد من الأدب السياسيّ،لم يُؤتَ كتَّابُها دهاء ابن الزبير، أو ذكاءَ واصل بن عطاء،أو نفعيَّةَ الأمويين، أو تقيَّة الشيعة. الدهاءُ والذكاءُ والنفعية والتقية عناصر أساسية لدى الزعماء والأمراء. أمَّا الصراحة، والاستبسال، والزهد في المال، والرغبة عن الحياة الدنيا فهي مقوِّماتُ الشهادة لا القيادة، ولهذا بلغ زعماؤها ما طلبوا، فتخطَّفَتْ رؤوسَهم السيوفُ قبل أن تتوَّجَ بشرف الحكم.

٣) رسائل الزبيريين

قال السيوطيُّ في ترجمة عبد الله بن الزبير[٢]: «.... وكان ممَّن أَبَى البيعة ليزيد بن معاوية، وفرَّ إلى مكة، ولم يَدْعُ إلى نفسه، لكن لم يبايع، فَوَجِدَ عليه يزيد وجداً شديداً. فلما مات يزيد بويع له بالخلافة». وقال الزركلي: «فارسُ قريش في زمنه.... بويع له بالخلافة سنة ٦٤هـ، عقيبَ موت يزيد بن معاوية،

(١) الوثائق السياسية/ ٣٧٢.
(٢) تاريخ الخلفاء/ ١٩٧.

فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام، وجعل قاعدة ملكه المدينةَ، وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة». مَنْ يَقِسْ عددَ الرسائل السياسية التي بلغتنا عن عبد الله بن الزبير إلى طول العمر الذي عاشته البيعة له، وإلى اتساع البقاع التي انبسطت عليها دولته يقفْ أمام لغز مُحيِّر، وهو أن امتداد الزمان وانبساط المكان في دولة انداحت أقاليمها من خراسان إلى مصر- عدا أجزاء من بلاد الشام- لم يُؤْثَرْ عن خليفتها المعروف بالفصاحة والبيان غيرُ بضع رسائلَ سياسية. فما علَّةُ هذا الشحّ؟ أهو ضربٌ من ضروب البخل الذي اتُّهم به ابن الزبير، انتقلتْ عَدواه من ديوان الخراج إلى ديوان الرسائل؟

لك أن تعلل هذه الظاهرة بعلَّتين تُذْكَرانِ على سبيل التخمين لا اليقين: أُولاهما أن عبد الله بن الزبير كان إلى الصمت أقرب منه إلى الهذر، وعلى الحذر والتَّربص والتريُّث أحرصَ منه على المبادرة والمحاورة، والجدال والمراء، فلم يكن يسمح للسانه وقلمه بأن يُدليا بما في رأسه إلَّا بعد أناة ورويَّة. وصفَه معاوية بنُ أبي سفيان فيما أوصى به ولده يزيد، فقال[١]: «أَمَّا ابنُ الزبير فإنه خَبٌّ ضَبٌّ، فإذا شخَص لك، فالْبَدْ له، إلّا أن يلتمسَ منك صلحاً». والثانيةُ أن الرواة بعد أن دالتْ دولتُه، وصار الأمرُ إلى بني أمية، أغفلوا أكثر رسائله السياسية؛ مصانعةً لبني أمية، وتودُّداً إليهم، فقلَّتْ رسائله بالإهمال.

مرَّ بك في باب الخطابة أن معاوية لَمّا أراد الناسَ على البيعة لابنه يزيد دعا عبادلة قريش: عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، فلمَّا تكلَّم ابن الزبير قدَّم ابن جعفر وابن عباس والحسن والحسين، وهو يعدّد من يَفْضُلون يزيدَ في تولِّي الخلافة. لكنه بعد وفاة الحسن ومصرع الحسين - رضي الله عنهما - تلقَّى البيعة لنفسه، ولم يُؤْثرْ بها ابنَ عباس.

وبعد حينٍ تناهى إليه أن ثلَّةً من أشراف العرب اجتمعوا في الطائف، وراحوا يتحاورون في أمور الخلافة والسياسة، وأنَّ ابن عباس لم يذكر ابن الزبير بخير فيما حاور به القوم، بل عرَّض به، فامتعض، وبعث إلى ابن عباس برسالة يرميه فيها- وهو حَبرُ الأمَّة- بالجهل، ويهدِّدُه بأن يمنعه عطاءَه، وبأن يعدل في معاملته عن ملاينته إلى مخاشنته، فقال[٢]: «أمَّا بعدُ، فقد بلغني أنَّك

(١) الوثائق السياسية/ ١٤٥.
(٢) الوثائق السياسية/ ٢٧٤.

تجلسُ بالطائف العَصْرين[١]، فتُفْتيهم بالجَهْل، تعيبُ أهل العَقْل والعلم، وأن حلمي عليك، واستدامتي فَيْئَك[٢] جرّأاك عليّ. فاكفُفْ-لا أبا لغيرك- من غَرْبك[٣]، وارْبَعْ[٤] على ظَلْعِك. واعقلْ إن كان لك معقول، وأكرمْ نفسَك، فإنك إن تُهنْها تجدها على الناس أعظم هواناً. ألم تسمع قول الشاعر:

فنفسك أكرِمْها، فإنك إن تَهُنْ عليك، فلن تَلْقَى لها الدهر مُكْرما

وإني أقسم بالله لئن لم تَنْتَهِ عمَّا بلغني عنك لتجدَنَّ جانبي خشناً، ولتجدنَّني إلى ما يَرْدعُك عني عجِلاً. فَرَ رأْيَكَ، فإن أشفى بك شقاؤك على الرَّدَى، فلا تَلُمْ إلَّا نفَسك».

وإذا كان حِلْم ابن الزبير قد جرّأ عليه ابن عباس، فإن السلطة جرَّأت ابن الزبير على ابن عباس، فشقَّ عليه في القول، وراح يهدِّدُه ويتوعَّدُه. ولو تذكرت ما وقفناك عليه في باب الخطابة من ردّ معاوية على ابن عباس لوجدت معاوية أحلَم وأرفق، وأوسعَ صدراً، وأبرعَ سياسة، وأدهى من ابن الزبير وأذكى في تألُّفه الخصم، وبلوغه الغاية. فهو لم يَبْهَتْ ابنَ عباس، ولم يضِق بمفاخرته ببني هاشم، ولم يقطع أعطيته وصلته، وأمسك عن مطالبته بالبيعة ليزيد. وهذا يعني أن ابن الزبير لم يُؤْتَ- وهو يكتُب رسالته متَّئداً- ما أوتي معاوية، وهو يخطب مرتجلاً من سعة الصدر وأدب الخطاب.

ومع ذلك كلِّه، فأنتَ - على تفضيلك معاويةَ في السياسة - تفضِّلُ ابن الزبير في البيان، إذْ أتتْ رسالته محكمة النسج، قويَّةَ التعبير، متدفِّقةَ العواطف، مُتْقَنةَ التصوير، لكنها بهذه السمات كانت إلى الخطابة أقرب منها إلى الترسُّل. وبالأسلوب الخطابي الحماسيّ، لا العقليِّ السياسيِّ وبَّخ ابنُ الزبير واليه على الموصل محمد بن الأشعث بعدما انهزم من معقله، وفرَّ من لقاء المختار بن أبي عبيد الثقفي، وأخلى له المدينة، ولاذ بتكريت. لقد تلقَّى ابن الزبير خبَر الهزيمة بالسخط، وراح يقلِّب مَسْلكَ واليه على أوجه مختلفة، فلم يجدْ له وجهاً يحتملُ العُذْرَ، ولا سبباً يسوِّغ العفو عنه، فأرسل إليه رسالة يُقَرِّعه فيها تقريعَ مَنْ

(١) بكرة وعشيّاً أو الصبح والعصر.
(٢) ربما كانت عطاءك.
(٣) حِدتك، أو حِدة لسانك.
(٤) انته عما أنت فاعل ولا تحمل نفسك ما لا تطيق.

يجعلُ المُواليَ معادياً، والمُظاهرَ منافراً، إذْ قال في ردِّه على ابن الأشعث[١]:

«قد فهمتُ كتابَكَ، ولا عُذْرَ لك عندي فيما فعلتَ، أَتُخْلي أرضَ الموصل وخراجَها وحصونها من غير جهاد ولا إعداد، وقد خرطتك[٢]عليها؟ فأنت تأكلُ منها الكثيرَ، وتبعثُ إليّ بالقليل. فوالله لو لم تقاتلْ مناصحةً لإمامك، ولا طلباً لثواب ربِّك، لكنتَ حَرِيّاً أن تقاتلَ عن بلد، أنت أميرُه، لك خيرُه، وعليك عيبُه-فلم تفعْل ذلك غضباً ولا مُحاماةً على سلطانك. فلستَ في أمر دنياك بالحازم القويِّ، ولا في أمرِ آخرتك بالخائفِ التقيِّ. فقد عجزتَ عن عدوِّك، وضيَّعْتَ ما ولَّيْتُك. والسلام».

ولعلّ أحسنَ ما يُسْتَحسن من هذه الرسالة إيجازها المحكم وتعبيرها الدقيق، وفكرتُها الموحَّدة، وبيانُها المشرق، ومناقلتُها بين سلامة الفطرة، وحلاوة الصنعة. لكنَّ الغَلَبة فيها للموهبة، فأنت لا تظفُر بغير عبارات يسيرة تقابلت معانيها نحو «تأكُل منها الكثير، وتبعثُ إلّي بالقليل» ونحو: «لك خيرُه، وعليك عَيْبُه». وأقلُّ منها العباراتُ المسجوعة المتوازنة مثل: «الحازم القوي، والخائف التقي» وهذه اللمسات البديعية لم تَطْغَ على بداوة ابن الزبير وفحولته.

يبدو من استعراض الرسائل الزبيرية أَنَّ عبد الله بن الزبير كان يتخيَّرُ ولاتَه من الفصحاء الذين ينسجون أو يُمْلون رسائلهم على منواله. ومنهم واليه على الكوفة عبدُ الله بن يزيد.

أرسلَ عبدُ الله هذا رسالةً إلى سليمان بن صُرَد، وسليمانُ- كما مرَّ بك فيما درسنا من خطب الشيعة -كان زعيم التوَّابين الذين خرجوا للثأر من قتلة الحسين بعد أن خذلوه. وفي هذه الرسالة نصحَ عبد الله لسليمان بألَّا يلقى الكثرةَ الأموية بالقلَّة التي يقودُها، وأن يتريَّثَ حتى ينضمَّ إليه بجيش زبيريّ، لأن الحزبين - على ما بينهما من خلاف سياسي- يلتقيان في مُلْتَقىً واحد، وهو الثأرُ للشهيد. جاء في الرسالة[٣]: «...إنكم تريدون المسير بالعدد اليسير إلى الجمع الكثير، وإنَّه مَنْ يُرِد أن ينقلَ الجبال عن مراتبها تكل معاولُه، وينزعْ

(١) الوثائق السياسية/ ٢٦٢.
(٢) ربما أراد وليتك.
(٣) تاريخ الطبري٧/ ٧١.

وهو مذمومُ العقل والفعل. يا قَومنا لا تُطْمعوا عدوَّكم في أهل بلادكم، فإنكم خيار كلكم، ومتى ما يُصِبْكم عدوُّكم يعلموا أنكم أعلامُ مصركم، فيُطْمِعهم ذلك فيمن وراءَكم. يا قومنا ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٠].

يا قومُ إن أيْدِيَنَا وأَيْديكُمُ اليومَ واحدة، وإن عدوَّنا وعدوكم واحد، ومتى تجتمع كلمتُنا نَظْهَر على عدوّنا، ومتى نختلفْ تَهِنْ شوكتُنا على مَنْ خالفنا. يا قومَنا، لاتستغشُّوا نُصْحي، ولا تخالِفوا أمري، وأقبلوا حين يُقْرأ عليكم كتابي. أقبلَ الله بكم إلى طاعته، وأدبَر بكم عن مَعْصيتِه».

ويغلب على ظننا أن مظاهرة الزبيريين للشيعة في الثأر للحسين رضي الله عنه لم تكن صادرة عن حمية خالصة لوجه الله، أو غيرة صادقة على أهل البيت، وإنما كانت مشوبة بطموح ابن الزبير إلى قهر بني أمية، والاستعانة على هذا القهر بتوبة التوابين، وتجنيد ندمهم المؤرق وتفجّعهم المحرق لهذا الغرض. وممَّا يدلُّك على ما زعمنا أن الرسائل السياسية الزبيرية والأموية نمَّت على ما كان يدورُ بين كبار الزعماء والقادة من مساومات.

فعبد الملك بن مروان حاول أن يُماكس القائد الزبيري المظفَّر إبراهيم بن الأشتر لكي يجعلَه حرباً على ابن الزبير، فأرسل إليه الرسالة التالية[١]: «أمَّا بعدُ، فإن آل الزبير انتزَوْا[٢] على أئمة الهدى، ونازعوا الأمرَ أَهله، وألحدوا في بيتِ الله الحرام. والله ممكنٌ منهم، وجاعلٌ دائرة السوء[٣] عليهم، وإني أدعوك إلى الله وسنةِ نبيه فإن قبلتَ وأجبتَ، فلك سلطانُ العراق ما بقيتَ وبقيتُ. لك عليَّ بالوفاء بذلك عهدُ الله وميثاقُه».

ومصعبُ بن الزبير سلك المسلكَ المُماكِس نفسه، وراحَ يتودَّدُ توَدُّدَ عبدِ الملك إلى إبراهيم بن الأشتر، ويبزُّه فيما يقطعُ له من الوعود، ويمنّيه من الأماني، ويؤمِّره على الإمارات ويشفعُ الوعودَ والأمانيَّ بالمواثيق الغليظة، فيقول في رسالة أرسلها إليه بعد مقتل المختار بن أبي عبيد الثقفي[٤]:

(١) تاريخ الطبري٧/ ١٥٨.
(٢) وثبوا.
(٣) الهزيمة والشر.
(٤) تاريخ الطبري٧/ ١٥٨.

«أمَّا بعدُ، فإن الله قد قتل المختار الكذَّاب وشيعتَه الذين دانوا بالكفر، وكادوا بالسحر. وإنّا ندعوك إلى كتابِ الله وسنة نبيّه، وإلى بيعةِ أمير المؤمنين. فإنْ أجَبْتَ إلى ذلك، فأقبل إليَّ، فإن لك أرضَ الجزيرة، وأرضَ المغرب كلَّها ما بقيتَ وبقي سلطانُ آلِ الزبير. لك بذلك عهد الله وميثاقه، وأشدُّ ما أخذَ الله على النبيين من عهدٍ أو عقد. والسلام».

لم يتوقَّف البريدُ عن حمل الرسائل، والتنقُّل بها، وبما تنطوي عليها من مُساومة ومماكسة بين بعض الخلفاء الأمويين، وبعض الولاة الزبيريين حتى بعد أن دالت دولةُ عبد الله بن الزبير، أو كادت تدول، ورسَخت دولة المروانيين أو كادت ترسخ. ومن أشهر هذه الرسائل رسالتان تبادلهما خليفةُ دمشق عبد الملك بن مروان، وأميرُ خراسان لابن الزبير عبدُ الله بن خازم السُّلَميّ.

كان ابن خازم في بداية حياته السياسية أمير خراسان لبني أمية، فلمَّا ثار ابن الزبير بالأمويين ظاهره ابنُ خازم، وكتب إليه يبايعه، فأقرّه على ولايته. قال الزركلي في ترجمته: «كان من أشجع الناس، له صحبةٌ وغزواتٌ وفتوحات. بعثَ إليه عبدُ الملك بن مروان، يدعوه إلى طاعته، فأبى. فلَمَّا قُتل مصعبُ بن الزبير بعثَ إليه عبدُ الملك برأسه، فغسّله، وصلَّى عليه. ثم انتقض عليه أهلُ خراسان، فقتلوه [سنة: ٧٢هـ]، وأرسلوا رأسه إلى عبد الملك».

والرسالتان المتبادلتان من أوْجز الرسائل، أطولهُما سطر وبعض سطر. وليس فيهما بيان يروع، ولا فنٌّ من الترسُّل رفيع. وإنما فيهما دلالةٌ سياسية تستوقفُ القارئَ والباحث. قال عبد الملك في رسالته[1]: «أمَّا بعدُ، فأهْدِ لنا طاعتَك، نَضَعْك مَوْضِعَكَ، ونقرَّك في عملك وعَقِبَكَ ما أغنوا عنّا وعن المسلمين». فأجابه ابنُ خازم[1]: «أمَّا بعدُ، فإنّي لم أكنْ لأَلْقَى الله ببيعتَيْن: بيعةِ رضوانٍ مع ابن حواريِّ رسول الله، أنتزعها. وبيعةِ نكثٍ مع ابن طريد رسول الله، ألبسها».

جوهرُ هذه الدلالة الكشفُ عمَّا كان يعتلجُ في قلوب البقيَّة الباقية من الصحابة والتابعين، وما ينجمُ عن هذه المشاعر من تحديد المواقف السياسية. فابنُ خازم ظاهَرَ الزبيريين- وهم الأخسرون أعمالاً في السياسة- لإكبارِه أباهم الزبيرَ بنَ

(١) الوثائق السياسية/ ٣٠١.

العوَّام الحواريَّ المبشَّر بالجنة. ونافر المروانيين- وهم أصحابُ الكفّة الراجحة- لأن جدَّهم الحكم بنَ أبي العاص أسخطَ رسولَ الله ﷺ، فطرده إلى الطائف.

من هاتين الرسالتين، وممَّا سبقهما من رسائل الزبيريين السياسية تستطيعُ أن تستنبط أموراً تستحقُّ الذكر: أوّلُها أن الفكرَ السِّياسي في الرسائل الزبيرية كان ضَحْلاً غايةَ الضحالة، يبهتُ ويخفتُ إذا قورن بفكر الشيعة وفكر الخوارج.

والثاني أنه لم يكن في جَعْبة عبد الله بن الزبير مِن حُجج يحتجُّ بها لحقِّه في الخلافة ما يَدْمَغُ به حججَ الأمويين أكثر من انتمائه إلى الزبير بن العوَّام وأسماء بنت أبي بكر، وهما أشرف من أبوي معاوية، وأبوي مروان بن الحكم ودفاعه عن عثمان يوم الدار..

والثالث أنَّ عبد الله بن الزبير - على ما نُحِلَ من ذكاء ودهاء - لم يَرْقَ إلى دهاء معاوية وذكائه، وحزم عبد الملك وتدبيره، ولو كان كما ذكروا لناوأ الأمويين بمشاعر الصحابة والتابعين.

والرابع أنَّ احتجانَه الأموالَ حتى عن أنصاره بغَّضه إلى أقرب الناس إليه، فارفضّوا عنه. ولو سلك في السياسة مَسْلكاً نفعيّاً، لتألّف بالمال القلوبَ واشترى السواعد والسيوف.

والخامسُ - وهو ناجمٌ عن الرابع - أنّه حكَّم في الرعيَّة درَّة عمر وشظَفَه بعدما أَلِفَتْ شَعْرةَ معاوية وترَفَه، فضاق به الناسُ، وآثروا دنيا الأمويين على أُخرى الزبيريين.

وخلاصة الرأي في رسائله السياسية أنها افتقرت إلى الفكر العميق، والجدل الدقيق لافتقار كاتبها إلى المناورة. والسياسةُ مصالحُ تُحقّق بالعقل، لا مبادئ تُطبَّق بالسيف.

٤) رسائل الثائرين ببني أمية

شهد العصر الأموي من بدايته إلى نهايته صخباً سياسياً متعدد السوح، متنازع الأحزاب، متعارض الآراء، دامي الاختلاف، لا تكاد سيوفه تغمد حتى تشهر. وأبرز القوى التي اصطرعت فيها ونازعت الأمويين عروة الخلافة الهاشميون والزبيريون والخوارج. وإلى جانب هذه الأحزاب الكبرى كانت تنشب ثورات أو فتن صغرى، يخرج زعماؤها إما من الرعية الناقمة على استئثار

الأمويين بالسلطة، واحتجانهم الأموال، وإما من القادة الطامحين الذين تندبهم الدولة الأموية لمحاربة أعدائها، فينقلبون عليها، ويحاربونها بجنودها.

أبرزُ هؤلاء الثائرين ببني أمية المختارُ بنُ أبي عبيد الثقفي، ومطرّفُ بن المغيرة بن شعبة، وعبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث، ويزيدُ بن المهلّب بن أبي صفرة، والحارثُ بن سريج التميمي، وجديعُ بن علي الأزدي. فهل اقترنت حركاتُهم المتمرِّدة برسائل سياسية؟ وهل تضمَّنت رسائلُهم فكراً سياسياً يستحق النظر والدرس؟ وأبرزُ هؤلاء البارزين المختارُ بن أبي عبيد الثقفي [قتل: ٦٧هـ]، فقد كان أخطرَ الثائرين وأعتاهم، وأشهرَ المغامرين وأدهاهم، وأسرعَهم إلى النهزة، وأبرعَهم في التقلُّب. بدأت ثورته بالأمويين بعد مقتل الحسين رضي الله عنه، إذْ دعا إلى الأخذ بثأره من قتلته، على النحو الذي تبدّى في دعوة سليمان بن صرد زعيم التوابين، غير أن استبسال سليمان أورده حتفه [سنة ٦٥هـ] في معركة الوردة.

أمّا المختارُ فإن دهاءَه لم يجاوز به السَّجْنَ والجَلْد، إذْ حَبَسه عبيدُ الله بنُ زياد، فبعثَ من محبسه إلى شيعةِ العراق رسالةً، بكى فيها ابنَ صرد، وألحقه بالصالحين والصِّدِّيقين، وحشره مع الشهداء والأنبياء، ثم راح يتجر بدم الحسين كما اتجر غيره بدم عثمان، ويخادع الأتقياء المخلصين عن مطامحه السياسية، فيزعم أنه ما خرج إلّا لينصف المظلومين من الجبارين، والمؤمنين من أعداء الدين: «... إن سليمان قد قضى ما عليه، وتوفَّاه الله، فجعل روحَه مع أرواح الأنبياء والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، ولم يكن بصاحبكم الذي به تُنْصَرون. إني أنا الآمرُ المأمور، والأمينُ المأمون، وأميرُ الجيش، وقاتلُ الجبَّارين، والمنتقمُ من أعداء الدين، والمُقِيدُ من الأوتار. فأعِدُّوا واستعدُّوا، وأبشروا واستَبْشروا. أدعوكم إلى كتاب الله، وسُنة نبيِّه ﷺ، وإلى الطلب بدماء أهلِ البيت، والدفاع عن الضعفاء، وجهاد المحلِّين. والسلام»[1].

أيّاً كان رأيك في شخصية المختار القوية، وآرائه السياسية، فأنت لا تُنكر عليه بلاغته المشرقة في الصياغة، وعبارته المعرقة في الأصالة، وبراعته المتألِّقة في الإثارة، حتى إنك لتضعه، غير متردّد، مع الحجَّاج في قرن. ولا مأخذ

(١) الوثائق السياسية/ ٢٦٥.

عليك. فكلاهما من ذؤابةِ ثقيف، لم تخالطْه صنعةُ المحترفين من موالي الكتّاب المتأثرين بما ترجم ابنُ المقفع، وأطنبَ سالم، وأسهبَ عبد الحميد.

وبعد المختار بعشرة أعوام يلقاك بينَ كتاب الرسائل السياسية ثائر ثقفي آخر، أوتي من البلاغة والبيان مثلُ ما أوتي من الشجاعة والإقدام، وهو مطرف بن المغيرة بن شعبة [قتل: ٧٧هـ].

كان مطرف والي الحجاج على الريّ، لكنه-كما يبدو من رسالة أرسلها إلى سويد بن سرحان الثقفي وغيره من المتمردين - مال عن الأمويين، ساخطاً على احتجانهم الأموال، ومجانبتهم العدل. ونزع إلى سياسة الخوارج، ورأى أن الخلافة شورى لا وراثة، وأنَّ أصلحَ الناس وأجدرهم بها مَنْ يُجمع المسلمون على مبايعته، لا من يتفرّد بمبايعته رجل واحد، ثم تؤخذ له البيعة بالإجبار لا بالاختيار. قال مُطرِّف في رسالته[١]: «....فإذا ظهر الحقُّ، ودُمِغَ الباطلُ، وكانت كلمةُ الله هي العليا، جعلنا هذا الأمرَ شورى بين الأمة، يرتضي المسلمون لأنفسهم الرِّضى. فَمَنْ قبلَ هذا مِنَّا كان أخانا في ديننا، ووليَّنا في مَحْيانا ومَماتِنا. ومن ردَّ ذلك علينا جاهَدْناه واستنصْرنا الله عليه. فكفى بنا عليه حُجَّةً، وكفى بتركه الجهادَ في سبيل الله غَبْناً، وبمداهنة الظالمين في أمر الله وَهْناً...».

ربّما كانت رسالة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث [قتل: ٨٥هـ] أحسن ما كُتِب في بابها. وقصة الرسالة أن الحجاج سيَّر ابن الأشعث إلى غزو سجستان وما وراءها من بلاد الترك التي يملكها (رتبيل)، فغزا وغنم وأخذ بعض الحصون، وأخبر الحجّاج بأنه يُؤثْر أن يتريَّث ليختبر مداخل البلاد ومخارجها، فكتب الحجاج له رسالة يقرعه فيها ويرميه بالجبن والخوف، جاء فيها[٢]: «إن كتابك كتابُ امرئ يحبُّ الهدنة ويستريح إلى الموادعة. قد صانع عدوّاً قليلاً ذليلاً. فامضِ لما أمرتُك به من الوُغول في أرضهم، والهدم لحصونهم، وقتل مُقاتلتهم، وإلا فأخوك إسحاق بن محمد أمير الناس».

شقّ على عبد الرحمن أن يُهدد بالعزل، فأمرَ من معه، فنصحوا له بالعصيان، والثورة بالحجاج وخلعه وإخراجه من العراق. وقال مَن حضر: «إذا

(١) تاريخ الطبري٧/ ٢٦٤.
(٢) الوثائق السياسية/ ٣٨٠.

خلعنا الحجاج عامل عبد الملك، فقد خلعنا عبد الملك» فخلع عبد الملك، وأرسل إلى الحجَّاج رسالة، يرميه فيها بأنه فاجر جائر، يسفك الدماء، ويعطل الشريعة، ويحكم بغير ما أنزل الله، ويُمعن في الضلال، ويوالي الظلمة[١]: «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث إلى الحجَّاج بن يوسف:

سلامٌ على أهل طاعةِ الله وأوليائه الذين يحكمون بعدله، ويُوفون بعهده، ويجاهدون في سبيله، ويتورَّعون لذكره. لا يسفكون دماً حراماً، ولا يُعَطِّلون للربِّ أحكاماً، ولا يدرسون له أعلاماً، ولا يتنكَّبون النهجَ، ولا يُبْرمون السيئ، ولا يُسارعون في الغيِّ، ولا يُدلِّلون الفَجَرة، ولا يتراضَوْنَ الجَوَرَة».

ومضى عبد الرحمن يهدّد الحجاج الذي لم يكن يجرؤ على تهديده. أحد من ولاته أو قادته، ويفضح مخازيه، ويسرد مظالمه، ويدعو عليه دعوة المضطر أن يهلكه الله بأيدي من ظلمهم- والكاتب أحدهم- ليكون هلاكه أشفى للنفس وأوفى بالثأر، وأدعى إلى الاعتبار. فقال: «.. إنَّ الله أنهضني لمصاولتِكْ[٢]، وبَعَثني لمناضلَتِك[٣]، حين تحيَّرَت أمورُك، وتهتَّكتْ ستُورك، فأصبحتَ عُرْيانَ حَيْران، مهيناً لا توافق وَفْقاً، ولا ترافق رِفْقاً، ولا تُلازم صِدْقاً. أؤمل من الله الذي أَلْهَمني ذلك أن يصيِّرك في حِبالك، وأن يجيءَ بك في القَرَن[٤]، ويَسْحَبَكَ للذَّقن، وينصف منك مَنْ لم تُنْصِفْه من نفسك، ويكون هلاكك بيديْ مَنْ اتَّهمْتَه وعادَيْتَه».

وختم الرسالة بتأكيد الثورة على الحجاج وتحقيره، فجعله نعلاً تخلع، وجعل خلعه ضرباً من ضروب الطاعة، ونافلة يتقرب بها إلى الله، وهدّده تهديد السباع الضواري للفرائس، وأبى أن يودّعه بتحية، لأن التحيات لأهل التقوى، لا لمرتكبي المعاصي، فقال:

«فلعمري لقد طالما تطاولت وتمكنت وأخطأت، وخلت أن لن تبور، وأنت في فلك الملك تدور، وأظن مصداق ما أقول ستخبره عن قريب. فسر

(١) الوثائق السياسية/ ٣٨١.
(٢) لمواثبتك.
(٣) المناضلة: المباراة في الرمي.
(٤) الحبل الذي يُشد به ويقيد.

لأمرك، ولاق عصابة خلعتك من حبالها، خلعها لنعالها، وتدرّعت حلالها، تدرُّعها مطالها. لا يحذرون منك جهداً، ولا يرهبون منك وعيداً، يتأملون خزايتكَ[١]، ويتجرعون إمارتك، عطاشاً إلى دمك، يستطعمون لحمك... تقرُّباً إلى الله... والسلام على أهل طاعة الله».

وما نظنُّك إلا مُعجباً بأصالةِ الرسالة، وفخامة الأسلوب، ورصانة الجُمل، وتدفُّق المشاعر وقوّة التعبير بالتصويرِ، والإمعان في التوقيع بالتسجيع، وإلباس الصنعة لبوسَ الطبع، حتى كأنَّ المعاني توائمُ المباني. وإذا أَبَيْتَ إلا أن تُعلِّل هذا البيان المشرق فعلِّلْه بعلَّتين:

أُولاهما أن فنَّ الترسُّل أَخَذ يزدهر مع مرور الزمن، فجاءت الرسالةُ أقوى من سابقاتها.

والثانيةُ أن الرسالة لم تكن ممَّا كتب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بيراعه وإبداعه، بل كانت ممَّا أملاه على ابن الأشعث كاتبٌ مشهور، وهو أيّوبُ بن زيد المعروف بابن القِريَّة [قتل: ٨٤هـ]. قال الزركليّ في ترجمته: «أحدُ بلغاء الدهر، خطيبٌ، يُضرَبُ به المثلُ، يقال: أبلغُ من ابن القرية. كان شجاعاً، فلمَّا انهزم ابنُ الأشعث سيق أيّوبُ إلى الحجاج أسيراً. فقال له الحجَّاجُ: والله لأزيرنَّك جهنَّمَ. قال: فأرحني، فإني أجِدُ حرَّها. فأَمَر به، فَضُربتْ عُنُقه فلمّا رآه قتيلاً قال: لو تركناه حتى نسمع كلامه».

إن الحجَّاج الذي ندم على قتله ابنَ القِرِّيَّة لم يكن دون القتيل فصاحةً، فقد أجاب قائده المتمرد برسالة تجاري رسالته في الأصالة والبيان، أو تبزُّها وتَشْؤُوها. وفيها تتمثَّل شخصيةُ الحجّاج الطاغية، وسخطه المتضرِّم، وتصميمُه على قتل غريمه- وقد فعل- كأنه نمر جريحٌ، أو قرشٌ زكمته رائحة الدم، فأملى، وهو يتضوَّر ويتنمَّر، على كاتبه نافع الرسالة التالية[٢]: «بسم الله الرحمن الرحيم. من الحجاج بن يوسف إلى عبد الرحمن بن الأشعث.

سلامٌ على أهل النزوع عن الزَّيْغ[٣] وأسباب الردى، لا إلى معادن السَّيّ،

(١) هوانك، فضيحتك.

(٢) انظر: الوثائق السياسية/ ٣٨٢، والأخبار الطوال/ ٣١٩.

(٣) الميل عن الهدى.

والتقحُّم في الغيِّ[١]، فإني أحمد الله الذي خلاك في حَيْرتك، إذْ بَهَتك في السيرة، ووهَّلَكَ[٢] للضرورة، حتى أقحمك أموراً أخرجك بها عن طاعته، وجانَبْتَ ولايته، وعسكرتَ في الكفر، وذهلت بها عن الشكر، فلا تشكُر في السَّراء، ولا تصبرُ في الضّراء. أقبلت مُسْتنّاً بحريم الحرَّة، تستوقدُ الفِتنةَ لتصلى بحرِّها، وجلبتَ لغيرك ضرها. وقلتَ: وثاقُ الاحتجاج، ومبارزةُ الحجّاج. أَلا بل لأمِّك الهَبَلُ[٣]. وعزّةِ ربِّك لَتُكبَّنَّ[٤] لنحرك، ولَتُقْلَبنَّ لظهرك، ولتتخبَّطَنَّ فريصتُك[٥]، ولَتُدْحَضَنَّ حُجَّتُك، ولَيُذمَّنَّ مقامُك، ولَتَشلَّنَّ[٦] سهامُك. كأني بك تصيرُ إلى غير مقبول منك إلّا السيف. هَوْجاً هَوْجاً[٧] عند كشف الحرب عن ساقها[٨]، ومبارزةِ أبطالها. والسلامُ على من أناب إلى الله، وسمع وأجاب».

وبرّ الحجاجُ بقسمه، وحنَثَ عبد الرحمن بما أقسم من أيمان. إذْ تروي كتب التراجم- والقولُ ههنا للزركلي-: «أن الحجَّاج قَصَده، فحدثت بينهما موقعةُ «دير الجماجم» التي دامت مئة وثلاثة أيام، وانتهت بخروج ابن الأشعث من الكوفة. وكان جيشه ستين ألفاً، فتتابَعَتْ هزائم جيشه في مسكن وسجستان، وتفرَّق من معه، فبقيَ في عدد يسير، فلجأ إلى (رتبيل)، فحماه مدة، فورَدت عليه كتب الحجاج تهديداً ووعيداً، إذا هو لم يقتل ابن الأشعث أو يقبض عليه، فأمسكه رتبيلُ، وقتله، وبعثَ برأسه إلى الحجاج».

وممَّا يلاحظُ في الرسائل السياسية التي كتبها الثائرون على بني مروان أو أَمْلَوْها على كُتَّابهم أن حظَّها من المبادئ السياسية كان دون حظِّها من المطامح الفردية، وأنها تتخلَّف عن رسائل الأحزاب فكريّاً، لكنها تساويها، أو تبزّها أدبيّاً، وأن نصيبها من الصنعة أوفرُ من نصيب أخواتها التي كتبها أو أملاها

(١) الضلال والخيبة.
(٢) أخافك.
(٣) الثكل.
(٤) تصرع وتُلقى.
(٥) لحمة (عضلة) بين الجنب والكتف.
(٦) لا تصيب مراميها.
(٧) حمقاً.
(٨) عند اشتدادها.

أوائل الخلفاء والأمراء، لكنها ظلَّت محافظة على الفطرة والطبع، لأن كُتَّابها كانوا من أقحاح العرب، وأكثرهم من ثقيف.

ويلاحظ كذلك أن مشاعرها شديدةُ التنمُّر والتفجُّر، قوية التعبير والتأثير، يمور فيها الغيظُ من الجانبين: من جانب المتمرِّدين على الخلافة الأموية، ومن جانب الوُلاة المكلَّفين بقمع التمرُّد، وإطفاء الفتن، وهذه العواطفُ الغضوبُ اقتضَتْ أن تكون اللغة التي تحتويها خطابيّةً حماسية، يكثر فيها الأمر والنهي، والقسمُ والتوكيد. حتى إنك، لو خطر لك أن تُخْرجها من فنّ الترسُّل، وتُلحقَها بفنِّ الخطابة لم تجد أدنى حرج فيما يخطر لك.

٢- الرسائل الإدارية

تستطيع أن تعدَّ الرسائل الإداريةَ ضرباً من ضروب الترسُّل السياسي لاتصالها بسياسة الدولة الأموية الداخلية، وتوفرها على الاهتمام باستقرار النظام، وتنفيذ الأحكام، ولحرصها على ضمان الأمان في أقاليم الدولة المترامية الأطراف، ولتحديدها طبيعةَ الروابط بين الحكّام والمحكومين على أسُس سليمة من التراضي والتوافق غير المعلن. أو على أساس العهد الذي يقطعُه الخليفةُ على نفسه حين يتلقَّى البيعة. وتستطيع أيضاً أن تفصل الرسائل الإدارية عن الترسُّل السياسي، ذاهباً إلى أنها ضعيفةُ الارتباط بالمبدأ الفكري أو الدينيّ الذي أقيمت على هديه الدولة، واتسمت بسماته، وتميَّزت بهذه السمات من أنماط الحكم في الدول الأخرى التي جاورتها. وإن شئت التوسُّط والإنصاف، والاعتدال في الحكم، والدِّقَّة في المقارنة، فقل: إن الرسائل السياسية أوسعُ من الإدارية أُفقاً، وأعمقُ فكراً، وأشدُّ اهتماماً بالقضايا الكُلِّية، وأوثق ارتباطاً بطبيعة النظام وسلامة الحكم واستمراره. وإن الرسائل الإدارية ليست، عند التحقيق، أكثر من تشريعات وأوامر وزواجر قابلة للتغيُّر، يُصدرها الخلفاء والأمراء، إذْ تقتضيها مشكلةٌ تعقَّدت، أو طارئٌ طرأ، أو ديوان أُنشِئ، أو فَيْءٌ وَرَد، أو مال جُبِي، أو وفرٌ يرادُ إنفاقُه في وجه من الوجوه المشروعة.

والخلاصة أنَّ الرسائل السياسية تتَّسم بالشمول، وأن الرسائل الإدارية تتَّسم بالخصوص. ولهذا السبب يطغى على أكثر الرسائل الإدارية الإيجازُ الشديدُ، وتبدو كأنَّها «البرقيَّات» الحديثة، إذْ يُكْتب أكثرها بلا مُقدِّمات

ولا تحيات، وتُزْجى أحكامُها بلا مسوِّغات ولا حُجج، وتخلو خواتيمها من تصوُّر النتائج وتصويرها في أغلب الأحيان، وتغدو لشدَّة اختصارها كمراسيم الرؤساء، وقرارات الوزراء في الدول العصرية. وإليك نموذجات من الرسائل الإدارية، نسردها ونعلّق عليها تعليقات نقدية سريعة:

- معاوية بن أبي سفيان أرسل إلى زياد ابن أبيه رسالةً، يأمرُه فيها أن يتخيَّر رجلاً كُفْئاً يصلح للإمارة على ثغر الهند، فجاءت الرسالة من ستِّ كلمات، ليس غير، وهي[١]: «انظر رجلاً يصلحُ لثغر الهند، فَوَلِّهِ».
- أجاب زياد[٢]: «إنّ قِبلي رجلين يصلحان لذلك: الأحنفَ بنَ قيس، وسنانَ بن سَلَمة الهذليّ».
- أجابه معاوية[٣]: «بأيِّ يومي الأحنف نُكافيه؟ أبخذلانه لأمِّ المؤمنين، أم بسعيه علينا يومَ صفين؟ فوجِّه سِناناً».
- ردَّ عليه زياد، فقال[٤]: «إن الأحنف قد بلغَ من الشرف والحِلم والسُّؤْدد ما لا تنقصه الولاية، ولا يضرُّه العزل». فانظرْ إلى هذا الحوار الموجز غاية الإيجاز في رسائل إدارية، ثم رجِّحْ زياداً، لأن معاوية احتكم فيها إلى العواطف ولأن زياداً حكَّم فيها المواهب. والغرضُ من الإمارة حُسْنُ الإدارة، وحسنُ الإدارة ينجمُ عن المهارة والجدارة في التصرُّف بأمور البلاد، لا عن مواقف وعواطف، نسخها تقادم العهد.

  ودارت بين زياد بن أبيه والحكم بن عمرو الغفاري [ت:٥٠هـ] رسائل من هذا النمط. والحكَمُ هذا صحابي جليل له رواية، وفيه صلاح وفضل وإقدام. غزا وغنم وأقام بمرو، عتب عليه معاوية فأرسل عاملاً غيره إلى مرو، فحبسه وقيّده حتى مات في قيوده. وما أرسله إلى زياد من القول يدل على تقواه وصراحته.
- أرسل إليه زياد رسالة يأمره فيها أن يبعث بما غنم من ذهب وفضة إلى

(١) الوثائق السياسية/ ١٥٨.
(٢) الوثائق السياسية/ ١٥٩.
(٣) الوثائق السياسية/ ١٥٩.
(٤) الوثائق السياسية/ ١٥٩.

obeikandl.com

معاوية، فقال[١]: «إن أمير المؤمنين معاوية كتب إليَّ يأمرني أن أصطفي له كلَّ صفراء وبيضاء. فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما كان من ذهب وفضة، فلا تقسمه، واقسم ما سوى ذلك».

- أجابه الحكم[٢]: «إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين. والله لو أن السموات والأرض كانتا رتْقاً على عبد، فاتقى الله، لجعل الله له منهما مخرجاً».
- فردَّ عليه زياد يتوعَّده بقطع يده أو رجله، فقال[٣]: «والله لئن بقيتُ لأقطعنَّ منك طابقاً سحقاً».

والرسائلُ الإدارية، لإيجازها الشديد، قد لا تعبِّر عن بلاغة مَنْ أرسلوها، وقد لا تُفصح عمَّا أُوتوا من بيان، لكنها تنمُّ على أخلاقهم، وتشي بطباعهم، فتحبِّب إليك كرمَ الكريم، وتبغِّض إليك لؤم اللئيم، وتفضح النفوسَ الصغيرة التي تكبِّرها المناصب، كنفس زياد ابن أبيه الذي أجاب الحكم بن عمرو الغفاري برسالة تتضوَّرُ لؤماً وشؤماً، وتتفجَّر تهديداً ووعيداً، لأن مُرْسلها يستمدُّ قوته من السلطة التي يحاولُ بها أن يخفي ضَعَته، وهو يخاطبُ جلَّةَ الصحابة، وصفوةَ التابعين. وهؤلاء الولاةُ الصغار النفوس الكبارُ المناصب لا يُبَصِّرهم دخائلهم ورذائلَهم إلَّا مَنْ مَنَّ عليهم بما هُمْ فيه من وَهْم الجبروت.

كان عبدُ الرحمن بن الضَّحاك والياً على المدينة، فطغَى وبغى، وشقَّ على الناس عامّةً، وعلى فاطمة بنت الحسين - رضي الله عنهما - خاصّةً بعد أن تودَّد إليها ليخطبها فردَّتْه، واستغاثتْ بخليفة دمشق يزيد بن عبد الملك. فأرسل الخليفة رسالة عرَّفته قدره، وعزلته، وولَّتْ مكانه عبد الواحد بن عبد الله النضري، قال يزيد في رسالته إلى عبد الواحد[٤]:

«سلام عليك، أمَّا بعدُ، فقد ولَّيْتُك المدينةَ، فإذا جاءَك كتابي هذا، فاهبطْ، واعزلْ عنها ابنَ الضحاك، وأَغْرِمْه أربعينَ ألف دينار، وعذبْه، حتى أسمع صوتَه، وأنا على فراشي».

---

(١) المصدر السابق/ ١٦١.
(٢) المصدر السابق/ ١٦١.
(٣) المصدر السابق/ ١٦١.
(٤) المصدر السابق/ ٤٥٩.

ألا ترى أن الخليفة كان أَرْأَفَ بأهل البيت وأبرَّ بالرعية من واليه الأرعن؟ وكأنه ورث الرأفة بالرعية والشدة على الرعاة من سلفه خامس الراشدين. «قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لَمّا ولي يزيد قال: سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز. وقال ابن الماجشون: لما مات عمر بن عبد العزيز قال يزيد: والله ما عُمَرُ بأحوجَ إلى الله مني، فأقام أربعين يوماً يسير بسيرة عمر بن عبد العزيز، ثم عدل عن ذلك». أمّا عُمر نفسه، فقد أطرى المؤرِّخون حكمه، فقالوا: «ملأ الأرض عدلاً، وردّ المظالم». وهذا القول، على إيجازه، لخص سيرة عمر، ولكنه لم يصوِّر ما كان الخليفة يكابد من احتمال التبعة ليردَّ المظالم، ويحكم بالعدل. إنك إذا قرأت رسائله خلت أنه كان يظاهر الرعية على الرعاة، وينصر الشعب على الحكام، ويحرض المعارضة على السلطة، وهو رأس الرعاة والحكام والسلطة. لهذا السبب طالت رسائله الإدارية بعض الطول، واشتملت على تفصيل قد يثقل على سمعك وقلبك، لكنه لم يثقل على لسان عمر وقلمه، لأنه كان- وهو يكتب الرسالة أو يمليها- يخشى أن يغفل عَدلُه عن مظلوم أو محتاج، أو أن يحجب برُّه عن مُعْتَرٍّ أو مُضطرٍّ، أو ينال أهل الذمة ظفر جارح من عماله. كتب إلى عامله على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن رسالة إدارية مفصلة، فيها من الرعاية فوق ما فيها من الجباية، ومن الحرص على مصالح الفلاحين والفقراء، فوق ما يرجوه الفلاح والفقير من الحاكم. حتى كأن الخليفة صاحبُ الأرض الذي يُعْطي الخراج لا الحاكم الذي يشاطر الفلاح غلَّته. فقال[١]: «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الحميد. سلامٌ عليك. أمَّا بعدُ. فإنَّ أهلَ الكوفة قد أصابَهم بلاءٌ وشدةٌ وجورٌ في أحكام الله، وسنةٌ خبيثة، سنَّها عليهم عمالُ السوء. وإن قوامَ الدين العدلُ والإحسانُ، فلا يكونَنَّ شيءٌ أهمَّ إليك من نفسك، فإنَّه لا قليل من الإثم، ولا تحملْ خراباً على عامر، ولا عامراً على خراب. انظر الخرابَ، فَخُذْ ما أطاق، وأصلحه حتى يعمرَ. ولا يُؤَخذْ من العامر إلا وظيفته في رفق وتسكين لأهل الأرض. لا تأخذنَّ في الخراج إلَّا وزنَ سبعة، ليس لها آيين[٢]، ولا أجور الضرابين، ولا هديةَ

(١) المصدر السابق/ ٤٣١.

(٢) آيين كلمة معربة وتعني: الطريقة، العادة، القانون.

النيروز[١] والمهرجان، ولا ثمن الصحف، ولا أجورَ الفيوج[٢]، ولا أجور البيوت، ولا دراهم النكاح. ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض. فاتبع في ذلك أمري، فإني قد ولَّيتك من ذلك ما ولَّاني الله، ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب حتى تراجعني فيه. وانظرْ مَنْ أراد من الذرية أن يحجَّ، فعجِّل له مئةً يحجُّ بها. والسلام».

لَمَّا كانت الغايةُ من الرسائل الإدارية تحديدَ الأحكام، وحلَّ المشكلات، بتوضيح الغامض، وإزالة الشبهة، لإقرار العدل، وإزالة الظلم، فقد حَرَصَ عمرُ بن عبد العزيز خاصَّة، والخلفاءُ والأمراء عامَّة على الدقَّة فيما يرسلون فوق حرصهم على الإمتاع. ولذلك جاءت هذه الرسائلُ ديوانيةً لا بيانية، ومالت عن الأسلوب الأدبي إلى الأسلوب العلمي، وتضمَّنت بعض الألفاظ الأعجمية المعرَّبة مثل: الآيين، والنيروز، والفيوج.

٣- رسائل التهديد والتقريع والتحذير والتأمين

لم يعرف العصرُ الأمويُّ الذي عاش تسعينَ سنةً من عمر التاريخ العربي إلَّا فَتَراتٍ قصيرةً من الهدوء والأمن، إذْ قضى القسمَ الأعظم من حياته في صَخَب سياسيّ لم يشغل الأمويين عن الفتوح، لكنه كان يضطرهم في كثير من الأحيان إلى أن يوجِّهوا كتائبهم إلى مرابضِ الخوارج، وشعاب المتمردين، ومكامن الفتن لحماية الدولة، وبسط الأمن، وتأمين السّبل. ولم يكن كلُّ قادتهم- على ما عُرفوا به من وفاء للخلفاء وجدارة بالإمارة- يَصْدعون بكلِّ ما أُمروا به، أو يلتزمون كلَّ ما أُلزموا، بل كان بينهم الجامحُ العصيُّ، والغاشم الضريُّ، ومن يشمس وقت الحاجة إلى انصياعه، ومن يعسف حيث يحسن العطف، أو يلطفُ حيث لا يجدي إلّا العنفُ. فيضطر بنو مروان إلى تأديبهم بالتهديد مرة، وبالتقريع أخرى.

من هؤلاء الأمراء الحجَّاج بنُ يوسف الثقفي الذي أرخى له الأمويّون العنانَ، فأخذته العزة بالإثم، وأبطرته النعم التي هبطت عليه، فطغى وتجبَّر، وبلغ به طغيانُه وجبروته أن يستهينَ بمن رفعوه بعد ضَعَة، وأعزُّوه بعد ذلّ،

(١) النيروز والمهرجان من أعياد الفرس.

(٢) رسول السلطان الذي يسفر بالكتب على رجليه.

فكانت كتب سليمان بن عبد الملك- قبل أن يُبايَعَ له بالخلافة- تَرِدُ إليه، فلا ينظر فيها. ولهذا أرسل إليه سليمان رسالة يتهدَّده فيها ويتوعَّده أن يجعله طريداً يبحث عن مأمن، وأرضاً مُوَطَّأة للأقدام، تدوسُها النعال، وأن يُرِيَهُ أخته ذبيحةً مُعلَّقة بالخطاطيف، فيقول[١]:

«... وايم الله لئن أمكنني الله منكَ لأدوسنَّك دَوْسَةً تلينُ منها فرائصك، ولأجعلنَّك شريداً في الجبال، تلوذ بأطراف الشَّمال. ولأعلِّقَنَّ الروميَّة[٢] الحمراء بثدييها. علم الله ذلك مني، وقضى إليَّ به عليَّ. فقِدْماً غرَّتك العافيةُ، وانتحيْتَ[٣] أعراضَ الرجال، فإنك قدرت فبذخت[٤]، وظفرت فتعدَّيْت، فرويدكَ حتى تنظر كيف يكون مصيرُك، إن كانت بي وبك مُدّة أتعلَّق بها. وإن تكن الأخرى فأرجو أن تؤول إلى مَذَلَّةٍ ذليلة، وخزية طويلة، ويجعل مصيرك في الآخرة شرَّ مصير. والسلام».

يبدو أن عجرفية الحجّاج ونزوعه إلى البطش، وتمادِيَهُ في القتل غريزة من غرائزه، أجمع على ذلك قدماء المؤرخين والمحدثون وكتَّابُ التراجم. قال ابن خلكان: «كان للحجاج في القتل وسفك الدماء والعقوبات غرائب لم يُسْمَع بها». وقال شمس الدين الذهبي: «كان ظلوماً جبّاراً ناصبياً خبيثاً، سفَّاكاً للدماء» وقال الزركلي: «كان سفَّاكاً سفاحاً باتفاق معظم المؤرخين». وهَبْكَ اتَّهمتَ بعض المؤرخين بالغُلوِّ لكرههم بني أمية ومن ولَّوْا وتولَّوا، فأنت لا تتهم عبدَ الملك بنَ مروان الذي أطلق يد الحجَاج في العراق، ثم ندم، وأرسلَ إليه بعد معركة «دير الجماجم» رسالةً من رسائل التقريع، يؤنِّبه فيها على ما ضَرَب من أعناق الأسرى، واجتاح من أموال الفقراء، وأمره بأَنْ يَدِيَ القتْلى، ويردَّ الأموال إلى أصحابها، ويُقلعَ عن الظلم باسم الخليفة، فعبدُ الملك قد يغتفرُ غطرسة الحجَّاج، لكنه لا يغتفر ضربَ الحق بالباطل، قال عبد الملك[٥]:

«أمَّا بعدُ، فقد بلغ أميرَ المؤمنين سَرَفُك في الدماء، وتبذيرك في الأموال

(١) الوثائق السياسية/ ٣٤٨.
(٢) زينب أخت الحجاج.
(٣) قصدت بالكلام.
(٤) تطاولت.
(٥) الوثائق السياسية/ ٣٣٩.

في الباطل، ومَنْعُك الحقَّ، ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخَصلتين لأحد من الناس. وقد حكم عليك أميرُ المؤمنين في الدماء: في الخطأ الدِّيَةُ، وفي العَمْد القَوَدُ، وفي الأموال ردُّها إلى مواضعها، ثم العملُ فيها برأيه. فإنَّما أمير المؤمنين أمينُ الله، وسِيَّانِ عنده مَنْعُ حقّ وإعطاء باطل. فإن كنتَ أردتَ الناسَ له فما أغناهم عنك، وإن كنتَ أردتهم لنفسك فما أغناكَ عنهم، وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران: لينٌ وشدَّة، فلا يُؤنِسَنَّك إلا الطاعةُ، ولا يوحِشَنَّك إلا المعصيةُ، وظُنَّ بأمير المؤمنين كل شيء إلّا احتمالَكَ على الخطأ. وإذا أعطاك الظفر على قوم، فلا تقتلَنَّ جانحاً ولا أسيراً....».

ثم أتْبَعَ الرسالةَ سبعةَ أبيات، إذا قرأتَها وجدتَ في المنظوم ما تجد في المنثور من تقريع.

وكما أفضى صَخَبُ الأحداث السياسية إلى رسائل تهديد ورسائل تقريع، فقد أفضى كذلك إلى رسائل تحذير. ومن هذه الرسائل رسالة حذَّر بها خالدُ بن أبان موسى بن نصير- وكان مُتَّهماً بمال اقتطعه- غَضَبَ عبد الملك بن مروان، وأخبره فيها أن الخليفة أشلى عليه الحجاجَ ليقتصَّ منه، وخيَّره بين اللجوء إلى الفُرس والاستعاذة بعبد العزيز بن مروان، وكان لموسى عند عبد العزيز مكانة وشأن. ونصُّ الرسالة[1]:

«إنك معزولٌ، وقد وُجِّه إليك الحجاجُ بن يوسف، وقد أُمر فيك بأغلظ أمر، فالنجاةَ النجاةَ، والوَحَى الوَحَى[2]. فإمَّا أن تلحق بالفُرْس فتأمنَ، وإما أن تلحق بعبد العزيز بنِ مَرْوان مُستجيراً به. ولا تمكنْ ملعونَ ثقيف من نفسك، فيحكم فيك».

إن توتر الأحداث طوالَ العصر الأموي أثَّر في نفوس الحكام والمعارضين، فبثَّ فيها القلق، وجعلها تحيا على حَرْف، وتتوادُّ على كَيْد، وتفترق على ترقُّب، وتتراسل أو تتواصل على حَذَر. وربَّما كانت رسائل أهل البيت أحفَل الرسائل بهذه المشاعر: ما كُتِب منها قبل فاجعة الحسين، رضي الله عنه، وما كُتب بعد الفاجعة، فقد طغى عليها الخوفُ والتخويف، والحذرُ والتحذير،

(١) الوثائق السياسية/ ٣٠١.
(٢) النجاة النجاة.

لا من الأمويين الذين يترصَّدون ويضطهدون وحسب، بل من المترصِّدين المضطهدين ومن المؤيدين المتردِّدين على السواء.

أرسل عبدُ الله بن الحسن إلى زيد بن علي رسالةً يحذرهُ فيها أَنْ يَركنَ إلى أهل الكوفة، وأن يثق بوعودهم، لأن سيوفهم لا تأتمر بهذه الوعود، فهم شُجعانُ الألسنة جبناءُ القلوب، لقي الهاشميون من تأييدهم المدخول أشدَّ ممَّا لَقُوا من معاداة الأمويين الصُّراح. ولهذا نَصَح عبدُ الله لابن عمِّه أن يتَّعظ بالتجارب، وأن يتذكَّر ما وصف به عليٌّ - كرم الله وجهه - أهلَ الكوفة من الضعف والخوف والتقلُّب والتذبذب وأن يتدبَّر ما يتذكّر قبل أن يتَّخذ منهم ظهراً، يؤمله ثم يخذلُه. كتب عبد الله لزيد يقول[١]:

«يا بنَ عمّ، إن أهل الكوفة نُفُخُ[٢] العلانية، خُورُ[٣] السريرة، هُرُجٌ[٤] في الرخاء، جُزُعٌ في اللقاء، تقدُمهم ألسنتهم، وتشايعُهم[٥] قلوبهم. لا يبيتون بعدّة في الأحداث، ولا ينوءون بدولة مَرْجوَّةً. ولقد تواترت إليَّ كتُبُهم بدعوتهم، فصممت عن ندائهم، وألبستُ قلبي غشاءً عن ذكرهم يأساً منهم، واطِّراحاً لهم. ما لهم مثلٌ إلَّا ما قال عليُّ بنُ أبي طالب: إِنْ أُهمِلْتم خُضْتم، وإن حُوربتم خرتم، وإنْ اجتمع الناسُ على إمام طَعَنتم، وإن أجبتم إلى مَشاقَّةٍ[٦] نَكَصْتُم».

والتوتُّرُ الذي لفح التمرُّد بالتوعُّد، أو لوَّح من بعيد بسياط التهديد، أو كبح جماح الطماح بأعنة التحذير أنجب إلى جانب هذه الرسائل الغضوب رسائل رضيَّة، هي أضدادٌ أو أنداد للرسائل المتذمِّرة، تحاول أن تفثأَ وقدة التوعُّد بالموادعة، وتُسكّن هيجةَ التقريع بالملاينة، وتكشف سحابةَ الغم التي ترافق التحذير بشعاع الاطمئنان المشرق من التأمين، لعلَّها تقيم التوازن في الحياة السياسية بين كفَّتَي الخوف والأمن.

جاءت رسائل التأمين هذه لتكون سلاحاً من الأسلحة غير الجارحة، تجري

---

(١) الوثائق السياسية/ ٤٨٠.
(٢) متكبرون.
(٣) ضعاف.
(٤) ربما كان معناها: أقوياء أشداء من هرج في عدوه اشتد.
(٥) لا تتبعهم.
(٦) عداوة وخلاف.

بها رُسُل البريد بين الساسة، وغايتُها أن تتألَّف المُعارضَ بالمماكسة والمساومة.

أرسل المختارُ بنُ أبي عبيد الثقفي إلى عمرَ بن سعد بن أبي وقاص رسالةً من هذا الضرب، ونصُّها[١]:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا أمانٌ من المختار بن أبي عبيد لعمرَ بنِ سعد بن أبي وقّاص. إنَّك آمنٌ بأمان الله على نفسك ومالك وأهلك وأهل بيتك وولدك، لا تُؤاخَذُ بحدث كان منك قديماً ما سمعتَ وأطعت، ولزمتَ رَحْلَك وأهلك ومِصْرك. فَمَنْ لقيَ عمر بنَ سعد من شرطة الله، وشيعة آل محمد ومن غيرهم من الناس، فلا يَعْرِضْ له إلّا بخير».

ولـمّا كانت هذه الرسالة عَهْداً، يقطعُه المُرْسِل على نفسه، ويلتزمُ الوفاءَ بنصِّه، فقد اقتضى ضرباً من التوثيق، وإشهاد الناس على إملائه ضماناً لإمضائه. ولهذا جاء في آخر الرسالة: «شهدَ السائبُ بن مالك، وأحمرُ بن شميط، وعبدُ الله بن شدّاد، وعبد الله بن كامل وجعل المختارُ على نفسه عهد الله وميثاقَه لعمر بن سعد بما أعطاه من الأمان إلّا أن يُحْدِث حدثاً. وأشهدَ الله على نفسِه، وكَفَى بالله شهيداً». ما وقفنا عليه من رسائل الأمان يُظْهر أنَّ كتاب العصر الأموي لم يلتزموا الإشهادَ على هذا الضرب من الرسائل. فقد أرسلَ عمرُو بنُ سعيد الأشدق [قتل: ٧٠هـ]- وكان والياً على مكَّة- إلى الحسين بن علي ﵄ رسالة ناشده فيها أن يعود إلى الحجاز آمناً مطمئناً، ولم يشهد على تأمينه غير قلبه وربه، والرسالة تنمُّ على ودادٍ لا يحتاجُ إلى أشهاد، ورعايةٍ خالصةٍ لله تُغْني عن التوثيق الرسمي. وإليك نصَّ الرسالة[٢]:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي. أمَّا بعدُ، فإني أسألُ الله أن يَصْرفَكَ عمّا يُوبِقُك[٣]، وأن يهديَكَ لما يُرْشدك. بلغني أنَّك توجَّهتَ إلى العراق، وإني أعيذُك بالله من الشّقاق[٤]، وإني أخافُ عليك فيه الهلاك، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر، ويحيى بن سعيد، فأقبلْ إليَّ معهما. ولك الله عليَّ بذلك شهيدٌ وكفيلٌ ومراعٍ ووكيل. والسلام عليك».

---

(١) الوثائق السياسية/ ٢٧١.

(٢) الوثائق السياسية/ ١٩٥.

(٣) يهلكك.

(٤) الخلاف.

وربَّما كان إلحاحُ المختار الثقفي على التصديق والتوثيق تعبيراً غير مقصود عن المكر والغدر. فقد أُثر عنه التقلب والرَّوَغان، ولَم يُؤْثَرْ عنه الإخلاصُ والوفاء. ورُوي فيه وفي الحجَّاج حديث صحيح روته أسماءُ بنت أبي بكر رضي الله عنهما، وهي تحاور الحجَّاج بعد قتله ولدها عبدَ الله بنَ الزبير. إذْ قالت: «إن رسول الله ﷺ حدَّثنا أن في ثقيف كذَّاباً ومُبيراً[1]: فأما الكَّذابُ فقد رأيناه-تعني المختار- وأمَّا المُبيرُ فأنت هو». والمُبيرُ المُهْلِك.

ولك أن تلحق رسائل الشفاعة برسائل الأمان إلا أن الأمان يمنحه القويُّ الضعيفَ، أو يمنُّ به القادر على العاجز، أمَّا الشفاعةُ فمسعىً كريمٌ، يَسْعاه مَنْ له شأن ومنزلة إلى من له سلطان ودولة، ليكشفَ به ضُرًّا، أو يجيبَ مُضطراً، أو يستدر عطفاً، ومَعْدِنه النبلُ لا الذلُّ، والشفاعةُ عند التحقيق أمر بمعروف أو نهيٌ عن منكر، وللشافع في الخير حظه من الأجر ما التزم قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٤/ ٨٥] ترى أكان لعبد الله بن عمر نصيبٌ من شفاعة حسنة، أم كِفْلٌ من شفاعة سيئة حينما شفع للمختار بن أبي عبيد الثقفي عند يزيد بن معاوية؟

قال ابن جرير الطبري: «كان عبيد الله بن زياد قد أمر بالمختار بن أبي عبيد الثقفي أن يُسجَن، لِما كان من مناصرته لمسلم بن عقيل، فلم يزل في السجن حتى قُتِل الحسين رضي الله عنه. ثم إن المختار بعث إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب بالمدينة، يسألُه أن يكتب له إلى يزيد بن معاوية، فيكتبَ إلى ابن زياد بِتَخْليةِ سبيله. وعلمتْ صفيّةُ أختُ المختار بمحبس أخيها، وهي تحت عبد الله بن عمر، فبكت وجزعت. فلمَّا رأى ذلك ابنُ عمر كتب إلى يزيد[2]:

«أمَّا بعدُ، فإن عبيد الله بن زياد حَبَس المختار، وهو صهري، وأنا أحبُّ أنْ يُعافَى ويصلح من حاله، فإن رأيت -رحمَنا الله وإيَّاك- أن تكتب إلى ابن زياد، فتأمره بتخليته فعلْتَ. والسلامُ عليك».

ومع أن رسائل التهديد والتقريع والتحذير والتأمين والشفاعة تضربُ إلى السياسة بسبب، وتستقي منها بعرق، فإنها لا تَقْنع من السياسة بكيْدها وخَتْلها،

(١) الحديث في الجامع الصغير ١/ ٢٧٣، وهو صحيح.
(٢) الوثائق السياسية/ ٢١٤.

ومناجزتها ومناهزتها، بل توازن الكَيْد والختل والمناجزة والمناهزة ببعض الدوافع النبيلة، والقيم الرفيعة التي ترقى ببعض الرسائل من النزعة النفعية إلى الأفق الإنساني، ومن الأَثَرة إلى الإيثار، ولا سيّما تلك التي تحضُّ على تأمين الخائف، وإنصاف المظلوم، على النحو الذي تجلَّى في رأفة عمرو بن سعيد بالحسين بن علي ﷺ. ولو أن الحسين استجاب لتأمين خَصْمه الأمويّ، ولم يُخْدَع بسراب التأييد الكوفيِّ لجنَّب نفسَه والمسلمين مأساةً داميةً لمَّا يندمل جُرْحها النَّعار.

٤- الرسائل الاجتماعية

كلُّ ما سبق عرضه من رسائل الأحزاب المتناحرة، والإدارة الرسمية، ومن رسائل التهديد والتحذير، والتأمين والشفاعة هو عند التحقيق غرضٌ واحد، يجمعُه بابٌ واحد، وهو باب السياسة. وقد وَسِعَ هذا البابُ كلَّ هذه الأغراض لارتباط بعضِها ببعض، ولتفرُّعها من أصلٍ أنجبها، هو النشاط السياسي الذي تَبدى بأكثر من صورة في أكثر من ميدان، ولَمْ يَعْرف الهدوء من بداية العصر الأموي إلى نهايته إلَّا في فترات قصيرة. وهذا النشاطُ- على زخارته وتنوُّع وجوهه- لا يعني أن الناس لم يكن لهم شاغلٌ يشغلهم إلّا الاختلاف في الخلافة، والاصطراعُ في سبيل الظفر بالسلطة. لقد كان وراء السيوف المشهورة والرماح المشرعة أُسرٌ تنشأ، وحياة تستمرّ، وأحوال تتعقَّد، ومشكلات تتجدَّد، وينجم عن تعقدها وتجددها أقلام تكتب، لتصور ما وراء السياسة المؤيدة والمعارضة من حياة اجتماعية تترجم أفكارها ومشاعرها رسائل التهنئة بزواج، أو التعزية بوفاة، أو معاتبة صديق، ساورت الريبةُ صديقَه في إخلاصه، أو شكر معروف استوجب صاحبهُ الثناء، أو التنصّل من تهمة افتراها شانئٌ على بريء، ممَّا لا حصر له من شؤون الكُتَّاب وشجونهم، وتَبعاتِ الحياة وتكاليفها.

حينما اعتزم مروانُ بنُ الحكم أن يزوِّجَ ولده عبدَ الملك تخيَّر له كريمةً من كرائم العرب، وهي ابنةُ قاضي دمشق لمعاوية، الصحابيّ الجليل النعمان بن بشير الخزرجيّ الأنصاري فأرسلَ إليه يخطِبُها بالرسالة التالية[1]: «بسم الله الرحمن الرحيم، من مروان بنِ الحكم إلى النعمان بن بشير. سلام عليك. فإني

(١) مختصر تاريخ دمشق٥/ ٢٢٠.

أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلّا هو. أمَّا بعدُ، فإن الله ذا الجلال والإكرام والعظمة والسلطان قد خصَّكم، معاشرَ الأنصار، بنُصْرة دينه، وإعزازِ نبيِّه ﷺ. وقد جعلك الله منهم في البيت العميم، والفرع القديم، وقد دعاني ذلك إلى اختيار مصاهرتك، وإيثارك على الأكفاء مِن وَلَدِ أبي. وقد رأيتُ أن أزوِّجَ ابني عبدَ الملك بنَ مروان ابنتك أمَّ أبان بنتَ النعمان. وقد جعلتُ صداقَها ما نطق به لسانُك، وترنَّمت به شفتاك، وبَلَغه مناك، وحَكمْتَ به في بيتِ[1] المالِ قِبَلَك».

قد تقولُ- وقولُك لا يجانبُ الصواب-: إن هذه الرسالةَ ليست اجتماعيةً خالصةً، وإن مخايل السياسة تتراءى بين سطورها. فالنعمانُ بن بشير، بهذه الخِطْبة المرجوَّة، يتلقَّى ثمنَ ما قدَّم إلى بني أمية. فهو الذي حمل قميص عثمان إلى معاوية، وشهد معه معركة صفّين، وتولى له قضاءَ دمشق، وإمارة اليمن، ثم إمارة حمص، وبقيَ فيها إلى أن مات يزيد بن معاوية، لكن قولك هذا قد يحوجك إلى قول آخر. لك أن تقول: إن كانت الرسالةُ الخاطبة قد أُرسلت إلى النعمان في عهد معاوية أو عهد يزيد فمروانُ أراد أن يكافئَ النعمان. ويصطنعَ الأنصارَ. وإن كانت الرسالة قد أُرسلت بعد موت يزيد فإن مروانَ أرادَ أن يختبر ولاءَ النعمان، لأنه كان قد ظاهر عبد الله بنَ الزبير بعد مصرع الحسين وبايعه. وممّا يدلُّك على تغيُّر موقفه أنَّ الأمويين قتلوه في بداية خلافة مروان. قال الزركليُّ في ترجمته: «قال ابنُ حزم: افتتح مروانُ دولته بقتله، وسيق إليه رأسُه من حمص سنة ٦٥هـ». وإذا أَبَيْتَ إلّا أن ترى طيفَ السياسة يُلِمُّ بالرسائل الاجتماعية، فأنت تستطيع أن ترى هذا الطيفَ في رسالة تعزية، كما رأيته في رسالة خِطبة، وعلَّةُ ذلك أن الأحداث الدامية في العصر الأمويّ كانت واسعة المدى، بعيدة الصدى، تتغلغل آثارها في كل جانب من حَيَوات الناس.

فالشيعة حينما عزَّوا الحسين بموت أخيه الحسن- رضي الله عنهما- ذكروا في بداية الرسالة محاسن الفقيد، ودعوا له بالمغفرة، ولأخيه بأن يُؤتيه الله جميلَ الصبر، وجزيلَ الأجر، ثم ضرعوا إلى الله أن يعينَ الحسين على إعادة ما ألف الناس من سيرة السَّلف الصالح. وفي خاتمة الرسالة- وهنا بدأت التعزية تتحول إلى مبايعة- طاف بالرسالة طائف من سياسة يتجلَّى فيما أخذَ الشيعةُ على أنفسهم

(١) بيت مال حمص.

من الطاعة للحسين، وفيما رجوا من دعوة الحقّ إلى الهاشميين. وإليك نصَّ الرسالة[١]:

«بسم الله الرحمن الرحيم. للحسين بن علي من شيعته وشيعة أبيه أمير المؤمنين. سلامٌ عليك. فإنا نحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو. أمَّا بعدُ، فقد بلغنا وفاةُ الحسن بن علي، عليه السلام يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً، وغفر الله ذنبه، وتقبَّل حسناتِه، وألحقه بنبيِّه، وضاعف لك الأجرَ في المصاب، وجبر بك المصيبة من بعده، فعند الله تحتسبُه ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾. ما أعظم ما أصيبتْ به هذه الأمةُ عامَّةً، وأنت وهذه الشيعة خاصَّةً بهلاك ابن الوصيّ، وابن بنت النبيّ، عَلَم الهدى، ونور البلاد المرجوِّ لإقامة الدين، وإعادة سير الصالحين، فاصبر- رحمك الله- ﴿عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ فإنَّ فيك خَلَفاً عمَّن كان قبلك، وإنَّ الله يُؤتي رشده مَنْ يهدي بهديك. ونحن شيعتُك المصابةُ بمصيبتك، المحزونةُ بحزنك، المسرورةُ بسرورك، السائرة بسيرتك، المنتظرة لأمرك، شرح الله صدرك، ورفع ذكرك، وأعظم أجرك، وغفرَ ذنبك، وردَّ عليك حقَّك».

ولم تنحسر ظلالُ السياسة عن رسائل الاعتذار، ولا سيما التي كان البريد يسيرُ بها بين الأمراء والخلفاء والقادة. إنَّ حياةَ الطبقة الحاكمة في كلِّ دولة من الدول- ولا سيما الدول الملكية ذات النظام الوراثي- لا يمكنُ انتزاعها من البيئةِ التي تكنفُها، والمكائِد التي تفشو فيها، حتى إن كلَّ جملة تُقال قد تُفسَّر تفسيراً سياسياً، فتُحْمَل على التأييد أو المعارضة. ولو كانت تهنئةً بولادة أو تعزيةً بوفاة، أو اعتباراً بمأساة، أو اعتذاراً عن هفوة.

عاتب الوليد بن عبد الملك-وهو خليفة- أخاه سليمان- وهو وليّ عهده- على أرجوفة أرجف بها المشاؤون بالنميمة، فحواها أن سليمان كان يتمنى موت أخيه لكي يحلّ محله. تبرَّأ سليمان ممَّا اتهم به، وتأثَّم، وأعلن أنَّ مِن أسخف السُّخف أن يستعجل الإنسانُ موتَ أخيه، وهو لا يدري أيسبقُه إلى الضريح أم يلحقُه، ثم ربأ بأمير المؤمنين أن يصغيَ إلى أباطيل الأعداء، والأعداءُ لا يُبْهجهم شيءٌ كما يُبهجهم تقطيعُ الأواصر، وإيغارُ القلوب،

(١) الوثائق السياسية/ ١٥١.

وتمزيق الأسرة الأموية. قال سليمان[١]: «فهمتُ ما قال أميرُ المؤمنين. ووالله لئن كنتُ تمنَّيتُ ذلك لما يخطر بالبال إني لأوَّلُ لاحقٍ به ومَنْعيٍّ إلى أهله. فعلامَ أتمنَّى زوالَ مُدَّةٍ، لا يلبثُ مُتمنيها إلَّا بقدر ما يحلُّ السَّفْرُ بمنزلٍ، ثم يظعنون عنه!؟ لقد بلغَ أميرَ المؤمنين ما لم يظهر من لفظي، ولا يُرى من لحظي. ومتى سمعَ أميرُ المؤمنين من أهل النميمة، ومَنْ ليس له رويَّة، أوشك أن يُسْرع في فساد النِّيات، ويقطع بين ذوي الأرحام والقرابات:

ومَنْ لا يغمِّضْ عينَه عن صديقه وعن بعض ما فيه، يَمتْ وهو عاتبُ
ومن يَتَتبَّعْ جاهداً كلَّ عثرة يَجِدْها، ولم يسلْم له الدهرَ صاحبُ

كان الوليد بن عبد الملك-والقول للمسعودي[٢]-: «مُتَحنِّناً على إخوته، مراعياً لسائر ما أوصاه به عبد الملك» وإذا عرفت أن عبد الملك أنجبَ سبعة عشر ولداً، أدركت ما يمكن أن يُسعَى به بينهم من أكاذيب وأراجيف، تختلق لتمزيق الأسرة الواحدة، وللعمل على ضرب الإخوة بعضهم ببعض. ومع ذلك فقد كان صدر الوليد رحباً، فردَّ على رسالة سليمان برسالة، تغمَّدَتْ وشايةَ الوشاة بالرعاية والبرِّ، فقبل عذرَه، وكذَّب الفِرْية بقوله[٣]:

«ما أحسنَ ما اعتذرت به، وحَذَوْتَ عليه! وأنت الصادقُ في المقال، والكاملُ في الفعال، وما شيءٌ أشبهُ بك من اعتذارك، ولا أبعدُ ممَّا قيل فيك. والسلام».

وإذا كانت فاشية الكيد والدسّ، والوشاية والسعاية تفشو في أبناء الأُسَر المالكة، فإن العلاقات الإنسانية بين الأَخلَّاء وذوي القربى من عامَّة الناس لا يرتبط عَقْدُها وحلُّها بالمناصب، فهي مشاعر عامَّة، يشترك في الإحساس بها الملكُ والسوقة، والرعاةُ والرعية. إن البشر جميعاً يتحابُّون ويتباغضون، ويأتلفون ويختلفون، وينجم عن ائتلافهم واختلافهم تواصلٌ وتقاطع، وجفاء وعتاب. كانت بين عبد الله بن معاوية- وجدُّه جعفرٌ ذو الجناحين بطل مؤتة- وصديقٍ له صحبةٌ ووفاء، ثم طاف بالصحبة طائف من جفاء، حيَّر عبد الله ورابه، فلم يطق مخامرةَ الريبة، ولم يستطع أن يتبيَّن ما حمل صديقَه على

(١) الوثائق السياسية/ ٣٩٧، مروج الذهب٣/ ١٧٣، ط المكتبة التجارية.
(٢) مروج الذهب٣/ ١٧٤.
(٣) المصدر السابق٣/ ١٧٤.

الصدّ، فكتبَ إليه يعاتبُه برسالة رقيقة، فيها من الوداد مثلُ ما فيها من العتاب، وهو فيهما صادقٌ، وعلى الراحة من وَخْز الشكِّ حريص. فقال[١]:

«أمَّا بعدُ، فقد عاقني الشكُّ في أمرك عن عزيمة الرأي فيك. ابتدأْتَني بلَطَفٍ عن غير خبرة، ثم أعقَبْتَني جفاءً عن غير ذنب، فأطمعني أوَّلُك في إخائك، وأيأسني آخرُك من وفائك، فلا أنا في اليوم مُجْمِعٌ لك اطِّراحاً[٢]، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة. فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشكّ فيك، فأَقَمْنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف. والسلام».

وعن عهد عمر بن عبد العزيز بلغتنا رسائلُ اجتماعية أرقى ممَّا ذكرنا وأنبل، ارتفعتْ أفكارها ومشاعرها وغاياتها من ضيق الائتمار والاعتذار، والارتياب والعتاب إلى سعة التكافل والتراحم، ومن النطاق الفرديّ الضيّق إلى الأفق الإنساني الواسع، فإذا هي تصور رعاية الحاكم للمحكوم، وإنصافَه المظلومَ، وتخصُّ أهلَ البيت بالعناية، لتكشف عنهم الضرَّ، وتعيد إليهم بعضَ ما أُخِذ منهم. قال ابن عساكر[٣]: «لَمَّا قدم المال- غَلَّةُ الكتيبة من خيبر، وكانت خمسَ رسول الله ﷺ- أمر عمرُ بنُ عبد العزيز أبا بكر بن حزم، فَقَسمه على بني هاشم. فكتبتْ إليه فاطمةُ بنت الحسين:

«بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله عمرَ أميرِ المؤمنين، من فاطمةَ بنتِ حسين. سلام عليك. فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو. أمَّا بعدُ، فأصلحَ الله أمير المؤمنين، وأعانه على ما ولَّاه، وعَصَم له دينه. فإن أمير المؤمنين كتب إلى أبي بكر بن حزم أن يقسم فينا مالاً من الكتيبة، ويتحرَّى ذلك ما كان يصنعُ مَنْ كان قبله من الأئمة الراشدين المهديين. فقد بلغنا ذلك، وقسم فينا، فوصل الله أمير المؤمنين، وجزاه من والٍ خيرَ ما جَزَى أحداً من الوُلاة. فقد كانت أصابتْنا جفوةٌ، واحتجنا أن يعمل فينا بالحق، فَأُقسم لك بالله يا أمير المؤمنين، لقد اختدم من آل رسول الله ﷺ مَنْ كان لا خادمَ له، واكتسى من كان عارياً، واستنفق مَنْ كان لا يجدُ ما يستنفق».

---

(١) البيان والتبيين٢/ ٨٤.

(٢) إبعاداً.

(٣) مختصر تاريخ دمشق ٢٠/ ٣٥٧.

قد يذهب بك الظنُّ إلى أن عمرَ بن عبد العزيز خصَّ أهلَ البيت بالرعاية، وتناسى عامّةَ الناس، لكي يستلَّ السخائمَ، ويتودَّد إلى الرعية الساخطة، ويجمعَها حول الحكم الأموي. فغرضُه سياسيٌّ، ينطوي على مصلحة خاصَّة، لا إنسانيٌّ يصدرُ عن عدل شامل، وأن فاطمة تلقَّتِ الإنصافَ بالشكر، أمَّا الكثرةُ الكاثرة من الناس فلم يَنَلْها كثيرٌ أو قليلٌ ممَّا اشتملتْ عليه الرسالة.

لا ينكر أحدٌ عليك أن عمرَ بدأ بأهل البيت، لا لمحاباتهم- وإن كانوا أهلاً للمحاباة- وإنَّما لأنه أعادَ إليهم حقّاً نُزِع، وأحيا حُكْماً شرع، ولأنَّ ما أصابَهم من حَيْف الأمويين أسخط الناسَ، فحينما أرضاهم أَرْضَى ربَّه وشعبَه، لا بني هاشم خاصَّة. إن إنصاف الهاشميين لم يشغَلْه عن إنصاف الأغفال وعن رعاية من ينساهم التاريخ، ولا ينساهم عمر. ذكر السيوطيُّ في ترجمته[١]: «أنَّ فاطمة زوجةَ عمر دخلت عليه، وهو في مُصَلّاه، تسيلُ دموعه على لحيته، فقالتْ: يا أمير المؤمنين ألشيءٍ حدث؟ قال: يا فاطمة، إني تقلَّدْتُ من أمر أمة محمد ﷺ أسودِها وأحمرِها، فتفكَّرتُ في الفقير الجائع، والمريضِ الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريبِ الأسير، والشيخِ الكبير، وذي العيال الكثيرِ، والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربِّي سائلي عنهم يوم القيامة، فخشيت ألّا تثبت لي حجة، فبكيت».

إن رسائل عمر بن عبد العزيز تنمُّ على إحساس إنسانيٍّ مؤرِّق، وعلى قلب معذَّب بالتبعة التي كانت تُثْقله، فلا يجدُ الراحةَ إلّا في شيءٍ واحد، وهو أن يظاهر الأمَّة على الحكومة، والعامَّة على الخاصة، والفقراءَ على الأغنياء، وأهلَ المَسْكَنةِ والمَتْرَبة على أهل المَيسَرة والمَقْرَبة، ومَنْ تقطَّعت به السبل على الغارق في الترف. أرسل رسالةً إلى عديِّ بنِ أرطاةَ عاملهِ على البصرة سنة ٩٩هـ، يقول فيها[٢]:

«أمَّا بعدُ، فإني كنت كتبتُ إلى عمرو بن عبد الله أن يُقسِّم ما وجد بعُمان من عشور التمر والحَبِّ في فقراء أهلها، ومَنْ سَقَط إليها من أهل البادية، ومَنْ أضافَتْه إليها الحاجةُ والمَسْكَنة وانقطاعُ السبيلِ. فكتب إليَّ أنه سأَل عاملَك قِبَلَهُ

(١) تاريخ الخلفاء.
(٢) فتوح البلدان/ ٨٤.

عن ذلك الطعام والتمر، فذكر أنه قد باعَه، وحملَ إليكَ ثَمَنه، فاردُدْ إلى عمروٍ ما كان حمل إليك عاملك على عمان من ثمن التمر والحب ليضعه في المواضع التي أمرتُه بها، ويصرفه فيها، إن شاء الله، والسلام».

ولعلَّ أنبل ما خطَّ يراع عمر من رسائل اجتماعية رسالةٌ أمَر فيها بأن تَرْعَى الدولةُ كلَّ شيخ أعجزَه الهرم، وكلَّ مشلولٍ أقعده الفالج، وكلَّ أعمى أحوجَه الضُّرُّ إلى دليل. قال ابن عساكر، وهو يروي أخبار عمر بن عبد العزيز[1]: «كتب إلى أمصار الشام أن ارفعوا إليَّ كلَّ أعمى في الديوان، أو مُقْعَد، أو مَنْ به الفالج، أو مَنْ به زمانة [أي: عاهة مُزْمنة تَعُوقُه] تحولُ بينه وبين القيام إلى الصلاة». فرفعوا إليه. «فأمر لكلِّ أعمى بقائد، وأمر لكلِّ اثنين من الزَّمْنى بخادم».

إن الإحاطة بما تناولته الرسائل الاجتماعية من أغراض مطلب عسير، فقد تطورت حياة العرب في العصر الأموي، ونجم عن تطورها تعقد في العلاقات والروابط، وتعدد في الأفكار والأساليب، ألقى على الرسائل الاجتماعية ظلالاً من الصنعة. ولاختصار التعقد والتعدد، تستطيع أن تجمل ما تقع عليه من موضوعات الرسائل الاجتماعية بتيارين: تيّار خاصٍّ، صوَّر فيه كتّابُ الرسائل ما كان يعرض لهم في حياتهم من سراء وضراء، وصداقة وقطيعة، وعتاب واعتذار. وتيارٍ عامٍّ صوروا فيه ما كانوا يشاهدون في حياة الناس من ترف وشظف، وصحة ومرض، وأثرة وإيثار، وتكافل وتعاون على البر والتقوى. ازدهر الأول في العصر الأموي كله، وازدهر الثاني في خلافة عمر بن عبد العزيز. وهو أَوْلى من الأوَّل بالتقدير، وأحفلُ منه بالمواقف والمشاعر الإنسانية.

٥- الرسائل الوعظية

حرص الأمويون على أن تبقى دولتُهم مصطبغةً بالصبغة الإسلامية، لا لإيمانهم بدينهم وحسبُ، بل لأن معارضيهم من الشيعة والخوارج والزبيريين كانوا أحرصَ منهم على صَبْغ أفكارهم بهذه الصبغة، إذْ كانوا يستندون في معارضتهم النظام الحاكم إلى الدين، فيستمدُّون من الكتاب والسنة ما يحتجّون

(١) مختصر تاريخ دمشق ١١٧/١٩.

به، ويظاهرون آراءهم بما عمل به الراشدون الأربعة ولا سيّما ما عمل به الشيخان: أبو بكر وعمر ﷺ. ومَنْ يقرأُ ما سعى به البريد بين الخلفاء والأمراء يَلْقَ في رسائلهم مواعظ كثيرة، وأكثرُها وأشهرها تلك التي سعى بها سعاة البريد من عمر بن عبد العزيز إلى وُلاته وعُمَّاله، أو بعث بها إليه أهلُ التقوى من وُعَّاظ العصر الأموي، وزُهَّاده وعُبَّاده. ولعله كان يجد بما يعظ به ويتَّعظ ضرباً من الراحة، والتخفُّف من الهمّ، فيوازن ما يريدُ من ثواب الآخرة بما أريد عليه من النهوض بتبعات الحكم في الحياة الدنيا.

إن ظاهرة الوعظ لم تقتصر، في العصر الأموي، على حلقات التدريس والقصّ والتذكير في المساجد، بل شعَّتْ أنوارُها، وتغلغلت أفكارها في الرسائل الرسمية والعامة على السواء. وممَّا يُذكر للوعاظ في ذلك العصر نزاهتُهم وإخلاصُهم للحق، وصراحتهم في الكتابة لأولي الأمر، وحسنُ التخلص بما يرضي الله، ولا يُغضب الحكَّام، والقدرة على الإقناع، ومجابهةُ أقوى الخلفاء برسائل صادرة عن التقوى والورع، بريئة من الزلفى والملق. أرسل هشام بن عبد الملك إلى سليمانَ بنِ مِهرانَ الأعمش رسالة يقول فيها[1]:

«اكتب إليّ بمناقب عثمان ومساوئ علي» وفي الطلب إحراجٌ للأعمش واختبار لنزاهته وجرأته. فأرسل إليه الردَّ التالي[1]:

«بسم الله الرحمن الرحيم. أمَّا بعدُ، يا أمير المؤمنين، فلو كانت لعثمان ﷺ مناقب أهلِ الأرض ما نفَعَتْكَ. ولو كانت لعليٍّ ﷺ مساوئُ أهلِ الأرضِ ما ضَرَّتْك. فعليك بخُوَيْصةِ نفسِك، والسلام».

قد تستعظم هذه الرسالة من غير الأعمش. أمَّا الأعمشُ نفسُه فقلمُه الذي يستمدُّ مِدادَه من قلبٍ رَوَى (١٣٠٠) حديث لا يمكن أن يجريَ على الطِّرس بأقلَّ من هذا الجواب المُسْكِت. قال الزركلي في ترجمته: «قال الذهبيّ: كان رأساً في العلم النافع والعمل الصالح. وقال السخاويّ: قيل: لم يُرَ السلاطينُ والملوكُ والأغنياء في مجلس أحقرَ منهم في مجلس الأعمش مع شدَّة حاجتِه وفقره». ومهما يُؤْتَ هشامٌ من قوة العارضة، ودَحْض الحجة بالحجة فهو عاجز عن مجابهة الحقيقة التي تتجلَّى في رسالة الأعمش، فكيف يلاقيه، وهو يسأل

(١) الوثائق السياسية/ ٤٩٣.

عمَّا يسأل ليسوِّغ ظفره بالدنيا، وأهل الدنيا أحقرُ الناس في مجلس الأعمش؟

إن الموعظة الحسنة لا تعمل عملها إلَّا فيمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ولهذا كان عمر بن عبد العزيز أحفل الخلفاء الأمويين بهذا الضرب من الرسائل. أرسل عمر إلى الحسن البصري رسالة قال فيها[١]: اجمع لي أمر الدنيا، وصف لي أمر الآخرة. فردَّ عليه الحسن البصري بهذه الرسالة:

«إنَّما الدنيا حُلُمٌ، والآخرة يقَظَةٌ، والموتُ متوسطٌ، ونحن في أضغاث أحلام. مَنْ حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضلَّ، ومن حلم غنم، ومن خاف سلم، ومن اعتبر أبصر، ومَنْ أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن علم عمل. فإذا زَلَلْتَ فارجع، وإذا ندمت فأَقْلِعْ، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبتَ فأَمْسِك. واعلم أنَّ أفضلَ الأعمال ما أُكرِهت النفوسُ عليه».

إن رسالة الحسن البصري، على ما فيها من نظر ثاقب، وحكم جامعة وتقويم وتثقيف، لا تبلغ مبلغ الرسائل التي كان عمر بن عبد العزيز يعظ بها ولاته وعُمَّاله. لأن الشمول الطاغي على الرسالة يجعلُها صالحة لراعي الأمة ولراعي الضأن. أمَّا المواعظ التي كانت رسائل عمر تحملها إلى الولاة والعمال فقد كانت ترمي إلى تربيتهم وتوجيههم تربية سياسية وتوجيهاً دينياً ليكونوا أهلاً لما ندبوا للقيام به. فهي نصح ديني من ناحية، وتقويم سلوكي إداريّ من ناحية ثانية.

أرسل عمرُ بن عبد العزيز إلى عبد الرحمن بن نعيم واليه في خراسان رسالةً يقول فيها[٢]: «أمَّا بعدُ، فكنْ عَبْداً ناصحاً لله في عباده، ولا تَأخذْك في الله لومةُ لائم، فإنَّ الله أَوْلَى بك من الناس، وحقُّه عليك أعظمُ، فلا تُولينَّ شيئاً من أمر المسلمين إلَّا المعروفَ بالنصيحة لهم، والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيما اسْتُرْعيَ. وإيَّاك أن يكونَ ميلُك مَيْلاً إلى غير الحق، فإن الله لا تخفى عليه خافيةٌ. ولا تذهبنَّ عن الله مَذْهباً، فإنه لا ملجأَ من الله إلَّا إليه».

ومن الجدير بالذكر ههنا أن بين الرسائل الوعظية رسائل لم تتمحَّضْ

(١) المصدر السابق/ ٤٤٥.
(٢) تاريخ الطبري ٨/ ١٣٥.

للنصح والإرشاد، ولم تخلصْ للوعظ، بل خالط وعظها السياسة، وشابتْ سياستها الإدارة، واقترنت إدارتها بالإعداد الحربيّ. ومن هذه الرسائل رسالةٌ كتبها عبد الحميد بن يحيى المشهور باسم عبد الحميد الكاتب نيابة عن آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد، وبعث بها إلى ابن الخليفة عبد الله بن مروان[١]. وفي هذه الرسالة المطوَّلة المفصَّلة يعظُ الوالد ولده، فيأمرُه بأن ينصرف إلى كتاب الله قراءةً وتفسيراً وتدبُّراً فيقول[٢]:

«ثم اجعل لله في كلِّ صباح يُنْعمُ عليك ببلوغه، ويظهرُ منك السلامة في إشراقه من نفسك نصيباً تجعله لله، شكراً على إبلاغه إياك يومَك ذلك بصحة جوارح، وعافية بدن، وسُبوغ نِعَم، وظهور كرامة، وأن تقرأ فيه من كتاب الله عزَّ وجلَّ جزءاً، تردِّدُ رأيك في آيهِ، وتزيِّن لفظك بقراءته، وتُحْضِره عَقلَكَ ناظراً في مُحْكَمه. وتتفهَّمه متفكِّراً في مُتشابهه. فإن في القرآن شفاءَ القلوب من أمراضها، وجلاءَ وساوسِ الشيطان وسفاسفه، وضياءَ معالم النور، تبياناً لكل شيء، وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون».

لم نسرد كلَّ الرسالة، ولم نقف على كلِّ ما فيها من وعظ، لتعذُّرِ الإحاطة في مثل هذا الكتاب بالإطناب الذي تفرد به عبد الحميد. إن الرسالة تمتدُّ وتطول حتى تملأ ثمانياً وثلاثين صفحة، وهذا الامتدادُ ناجمٌ عن أمرين:

أوّلهما تعدُّد الأغراض في الرسالة الواحدة، فالكاتب ينتقل من القيادة إلى الإدارة، ومن الإدارة إلى الوعظ، ومن الوعظ إلى مراقبة العدو، فإعداد الجند حتى يحيط بكل ما يحتاج إليه القائد المظفّر.

وثانيهما الإسهابُ في عرض الغَرَضِ الواحد، على نحوٍ لم يكن العرب يألفونه قبلَ أن تصيرَ زعامة الرسائل الديوانية إلى عبد الحميد. ويتجلَّى الإسهاب في عرض الفكرة الواحدة بجملٍ وألفاظ متعدِّدة مترادفة، كقوله: «بصحةِ جوارح، وعافية بدن» وقوله: «تردِّدُ رأيك في آيهِ، وتُحْضره عقلَك، وتتفهَّمه مُتفكراً». وإطناب عبد الحميد هو الذي حَمَل بعضَ النقاد القدماء على أن يقول - ولعلَّه أراد القدحَ، ولم يُرد المدح -: إن عبد الحميد كتب رسالةً تزِنُ وِقْرَ

(١) وقد أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي.
(٢) صبح الأعشى ١٠/ ١٩٥، وتأريخ الرسالة سنة/ ١٢٩هـ.

جَمَلٍ، وحَمَل بعضَ الدارسين المحدثين على اتِّهامه باقتباسه بعضَ الأفكار من الثقافة اليونانية عامَّة، ومن أرسطاليس خاصَّة، على النحو الذي ناقشناه في الكلام على الرسالة السياسية.

٦- الرسالة الوصفية

مَنْ يُعِد النظر فيما درسنا من رسائل السياسة والإدارة والاجتماع والوعظ يجدْ أن المضمون ذهبَ بالحظِّ الأوفى من دراستنا، وأن الشكلَ الفنِّيَّ بَهتَتْ أضواؤه، وخفتَتْ أصداؤه، وتوارى خلف الأفكار والمشاعر تواريَ الخوافي تحت القوادم. وعلَّةُ ذلك أن الأغراض السابقة ترمي إلى الإقناع قبل الإمتاع، وتخاطب العقل ثمَّ القلبَ. وهمُّ من خاضوا فيها اتَّجهَ إلى تغليب رأيٍ على رأي، ودَحْضِ حجَّةٍ بحجة، فإن ورَدَ في تضاعيفها رسمٌ يروق، أو انفعال يؤثر، أو تركيب يعجب، أو إيقاع يطرب، فورود هذه المحاسن عفويٌّ لا متعمَّدٌ، وخادمٌ للمعنى، لا مُلْصَقٌ به.

أمَّا الرسائل الوصفيةُ فإنَّها تعكسُ طرفي المعادلة، فترجِّح الفنَّ على الفكر، وتُعْنَى بتصوير الجمال إلى جانب عنايتها بتوليد المعاني، حتى إن بعضها يقاربُ الشعر في جمال التصوير، ورهافة الحسِّ، ورشاقة اللفظ، وتجاوب الأصوات، وتوقيع الجمل على إيقاع السجع.

ومع أن الشكل طغى على المضمون في الكثرة الكاثرة من الرسائل الوصفيَّة، فإننَّا قد نقع على رسائلَ محكمة النَّسْج، توازنتْ كِفَّتاها توازناً دقيقاً، فكان حظُّها من الفكر مثلَ حظِّها من الفنِّ. أرسلَ عمرُ بن عبد العزيز إلى الحَسَن البصريِّ رسالةً يطالبُه فيها بأن يصفَ له الإمامَ العادل. فردَّ عليه البصري برسالة أحاطتْ بصفات الإمام العادل إحاطة تامَّة، تقارب ما سمَّاه البلاغيّون «الاستقصاء». عرَّف البلاغيّون الاستقصاء فقالوا: هو أن يتناولَ الشاعرُ أو الكاتبُ معنى من المعاني، فيستقصيه حتى لا يترك فيه شيئاً. والحسنُ البصريُّ أحصى واستقصى في رسالته، إذْ قَلَّبَ معاني الإمام العادل على أوجه مختلفة، وعرضَه علينا بصور متعددة؛ فجعلَه مرة راعياً واعياً، وأخرى والداً حانياً، وثالثة والدة رؤوماً، ورابعة قلباً نابضاً، حتى غدت كلُّ فقرة من الرسالة كالبيت من الشعر، لا يُعْوِزها حتى تنقلب من المنثور إلى المنظوم إلّا إيقاعٌ من أوزان

الخليل، ورويٌّ من قوافي الأخفش. قال الحسن البصري في رسالته[١]:

«اعلمْ يا أمير المؤمنين أنَّ الله جعلَ الإمام العادل قوامَ كلِّ مائل، وقصْدَ كلِّ جائر، وصلاحَ كلّ فاسد، وقوةَ كل ضعيف، ونصَفَةَ كل مظلوم، ومَفْزَعَ كل ملهوف. والإمامُ العادلُ، يا أمير المؤمنين، كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتادُ أطيب المراعي، ويذودُها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنُّها من أذى الحرِّ والقرِّ.

والإمام العادلُ، يا أمير المؤمنين، كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدَّخر لهم بعد مماته.

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، كالأمِّ الشفيقة البرَّة، الرفيقة بولدها، حَمَلته كرهاً، وربَّته طِفْلاً، تسهرُ بسهره، وتسكنُ بسكونه، تُرضعُه تارةً، وتفطمه أخرى، وتفرحُ بعافيته، وتَغْتمُّ بشكايته.

والإمامُ العادل، يا أمير المؤمنين، وصيُّ اليتامى، وخازنُ المساكين، يُرَبِّي صغيرهم، ويمون[٢] كبيرهم، والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، هو القائمُ بين الله وعباده، يسمعُ كلام الله، ويُسْمِعهم، وينظر إلى الله، ويُريهم، وينقادُ إلى الله، ويقودُهم...».

في رسالة الحسن البصري السابقة مقوِّمات فنية، ترقى بها من الفكر السياسيِّ والتوجيه التربويِّ إلى الوصف الأدبي الرفيع. وأبرز هذه المقومات التصويرُ الحيُّ الذي تساق فيه الصورة في ركاب الفكرة، بلا تكلُّف ممجوج؛ «كالراعي.. كالأب..». والازدواج المتساوي الفقرات؛ «يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم». والتقابل المسجوع «يسعى لهم صغاراً، ويعلِّمهم كباراً»، «يكتسبُ لهم في حياته، ويَدَّخِرُ لهم بعد مَماته». ورد ذلك كلُّه، على ما فيه من تفصيل، بلا إطالة مملة، ولا صنعة مُسْتثقلة.

ولعلَّ هذا التوازن بين كفَّتي المعاني والمباني ناجمٌ عن طبيعة الموضوع، فعمرُ بن عبد العزيز فرضَ على الكاتب المعنى، والكاتب تخيّر له المبنى، فكان عليه أن يصدع بما أمر، فيوفي الغرضَ حقَّه من الإفهام والتّفسير،

(١) العقد الفريد١/ ٣٤.

(٢) يقوم بنفقته، ويكفل مؤنته.

فلا يسرف في التصوير، لئلا يفوِّتَ على الخليفة مُلْتَمَسه، وهو الوقوف على الأبعاد السياسية والتربوية والاجتماعية في عدالة الإمام وسلوكه وأخلاقه. ولهذا لم يسمح الحسنُ البصري لنفسه أن يغلو في الوصف، لئلا تصغر المعاني بتكبير الصور.

أمّا إذا تخيَّر كاتبُ الرسالة مشهداً من مشاهد الطبيعة، فوصَفَه، وجعَل همَّه الأول أن ينقل ما رأى لكي يمتع مَنْ يَسمع ويقرأ، فحينئذٍ تنحسر الأفكار، وتمتدُّ الصور، ويكون للامتداد حظٌّ من الجمال وافر، لأن كاتب الرسالة في هذه الحالة يقصدُ إلى الإمتاع بالفنِّ، ولا يرمي إلى الإقناع بالفكرة.

تلقى هذا الضرب من الرسائل الوصفية في يسيرٍ من رسائل الحجاج، وكثيرٍ من رسائل عبد الحميد. كتب الحجَّاج رسالة بعث بها إلى عبد الملك بن مروان يصوِّر فيها نزول المطر، فقال[١]:

«أمَّا بعدُ، فإنَّا نُخبر أميرَ المؤمنين أنه لم يصبْ أرضَنا وابلٌ منذ كتبت أُخبره عن سُقيا الله إيَّانا، إلّا ما بلَّ وجهَ الأرض من الطَّشِّ[٢] والرَّشِّ والرَّذاذ، حتى دَقِعَت[٣] الأرضُ، واقشعرتْ[٤]، واغْبرَّت، وثارت في نواحيها أعاصيرُ، تذرو دُقاقَ الأرض من تُرابها. وأمسك الفلاحون بأيديهم من شدَّة الأرض واعْتزازِها[٥] وامتناعها. وأرضُنا أرضٌ سريعٌ تغيُّرُها، وشيكٌ تنكُّرها، سيئٌ ظنُّ أهلها عند قحوط المطر. حتى أرسل الله بالقَبول[٦] يومَ الجمعة، فأثارت زِبْرِجاً[٧] متقطِّعاً متمصِّراً[٨]، ثم أعقبته الشَّمال يومَ السبت، فَطَحْطَحت[٩] عنه جَهامَه[١٠]، وألَّفت متقطِّعه، وجمعت متمصِّرَه، حتى انتضدَ فاستوى، وطما وطحا، وكان[١١] جوناً مُرْتَعِنّاً[١٢]، قريباً رواعدُه. ثم عادت عوائدُه بوابلٍ مُنْهملٍ مُنْسَجلٍ[١٣]، يردُف بعضُه بعضاً. كلما أردف شؤبوبٌ[١٤] أردفته شآبيبُ

(١) البيان والتبيين ٤/ ٩٩ وما بعد.
(٢) المطر القليل ونحو منه الرش والرذاذ.
(٣) صارت لا نبات بها.
(٤) تقبضت من المحل.
(٥) صلابتها وخشونتها.
(٦) ريح الصَّبا.
(٧) السحاب الرقيق.
(٨) المتفرق.
(٩) فرقته.
(١٠) السحاب الذي لا ماء فيه.
(١١) وصار.
(١٢) مسترسل سائل.
(١٣) منصب.
(١٤) دفعة من دفعات المطر.

لشدَّةِ وقعه في العراص[١]. وكتبت إلى أمير المؤمنين، وهي ترمي بمثل قِطع القُطْن، قد ملأ اليبابَ[٢]، وسدَّ الشعاب، وسقى منها كلُّ ساق. فالحمدُ لله الذي أنزل غيثَه، ونشرَ رحمته من بعد ما قَنَطُوا، وهو الوليُّ الحميد، والسلام».

إن رسالة الحجّاج ألواحٌ متقنةُ الرسم، نشيطةُ الحركات، واضحة القسمات، مفوَّفةُ الألوان، سريعة التقلُّب، تتلاعب بخطوطها وظلالها ذيولُ الرياح، فإذا هي ترسم لك صوراً متتابعة، ومشاهد عريضة تملأ الآفاق؛ تعرضُ مرّةً سَحْنَة الأرض المكفهرة وقد ثار غبارُها، وتصوّر أخرى السماءَ المدرار، وقد انهمرت أمطارُها، وترصد ثالثةً الغيومَ المتناثرة يتجمَّعُ منها ما تفرَّق، ويتضامُّ ما تمزَّق. وتُريك رابعةً الثلجَ يكسو ظهر الأرض جُبَّةً بيضاء من قطن مندوف، يُغطي الأودية والشعوف.

وباللغةِ الشاعرةِ نفسها، وبالريشة الرهيفةِ عينها رسم عبد الحميد الكاتب مشاهدَ من الطبيعة الحيَّة، نقلها بصرهُ الحديد، ويراعُه البارع من رحلة صيد، فإذا هي معرضٌ من معارض الفنون، تضاهي منحوتاتُه ومرسوماته ما نحت شعراءُ البادية ورسموا من مشاهد الصيد والطرد، ولا تتخلَّف عنها في غزارة المفردات، وغرابة الألفاظ، وتبزُّها في الاحتفال بالترادف والإكثار من البديع. والرسالة، كما يبدو، موجَّهةٌ إلى مروان بن محمد آخرِ الخلفاء الأمويين. في اللوح الأول منها رسم عبدُ الحميد كلابَ الصيد، أبداناً وألواناً، وتدريباً وتجريباً، فقال[٣]: «وإني أخبر أمير المؤمنين أنَّا خرجنا إلى الصيد بأَعْدَى الجوارح، وأثقفِ[٤] الضواري، أكرمها أجناساً، وأحسنها ألواناً، وأحدِّها أطرافاً، وأطولها أعضاءً، قد ثُقِّفَتْ[٥] بحسن الأدب، وعُوِّدتْ شدَّة الطلب، وسَبَرتْ[٦] أعلام المواقف، وخبرت المجاثم، مجبولةً على ما عُوِّدتْ، ومقصورةً على ما أُدِّبت».

---

(١) كل فسحة وساحة وناحية لا بناء فيها.
(٢) الخالي لا شيء فيه.
(٣) جمهرة رسائل العرب٢/ ٥٤٥.
(٤) أكثر دربة بالصيد.
(٥) درّبت.
(٦) امتحنت.

وفي اللوح الثاني رسم عبد الحميد مشهداً مديد الأبعاد، أجمل من الأول وأكمل، تتجلّى فيه الطبيعة الجامدة حيّة متحركة، والحيّةُ صاخبة ناشطة، من رياح تلين وتزمجر، وشمس تغيب وتسفر، وجياد مطلقة الأعنة، وظباء تنهل من الماء، وأرانب تجفل من الثعالب، فقال:

«أمطرتْنا السماءُ مطراً متداركاً[١]، فَرَبت منه الأرضُ، وزَهر البقلُ، وسكنَ القَتَام[٢] من مثار السنابك، ومُتشعِّبات الأعاصير مُهْلَةَ أن سرنا غَلَوات[٣]، ثم برزت الشمسُ طالعةً، وانكشفت من السحاب مُسْفرةً، فتلألأت الأشجار، وضحك النُّوَّار، وانجلت الأبصار، فلم نَرَ منظراً أحسنَ حُسْناً، ولا مَرْموقاً أشبه شكلاً من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض.

والخيل تمرحُ بنا نشاطاً، وتجتذبنا أعنَّتُها انبساطاً. ثم لم نلبثْ أن علتنا ضبابةٌ، تقصُرُ طَرْفَ الناظر، وتُخفي سُبُلَ السلام، تَغْشانا تارة، وتنكشفُ أخرى، ونحن بأرضٍ دَمِثَةٍ[٤] التراب، أشِبَةٍ[٥] الأطراف، مُغدقةٍ[٦] الفِجاج، مملوءةٍ صَيْداً من الظِّباء والثعالب والأرانب».

وثالث الألواح أمتع من سابقيه وأروع، وأعجب وأصخب، بث فيه الكاتب من الحركات المتسارعة، والأصوات المتتابعة، ومن العدو والنزو، والتحريض والإشلاء ما جعل مشهد الصيد البرّيِّ يكنفُك من كل جانب، حتى كأنك بعضُه، تشارك في الصيد، ولا تقنع من المشهد بالمشاهدة. قال عبد الحميد:

«ثم اجتذبت الضواري مقاودَها، فأمرتُ بإرسالها على الثقة بمحضرها، وسرعةِ الجوارح في طلبها. فمرَّت تحِفُّ حفيفَ الريح عند هبوبها، تسفُّ[٧] الأرض سفاً، كاشفةً عن آثارها، طالبةً لخيارها، حارشةً[٨] بأظفارِها، قد مزَّقتها تمزيق الريح الجراد، فمِن صائحٍ بها وناعِر، وهاتفٍ بها وناعق، يدعو الكلب باسمِه، ويفديه بأبيه وأمِّه، وراكضٍ تحت مفرِّه، وخافق يطلبه الرمح، وطامحٍ يمنعه، وسانحٍ[٩] قد عارضَه بارحٌ[١٠]، قد حيَّرتنا الكثرةُ، وأَلْهَجتْنا

(١) متتابع.
(٢) الغبار.
(٣) ج غلوة: قدر رمية سهم.
(٤) سهلة لينة
(٥) ملتفة الشجر.
(٦) مخصبة.
(٧) تذهب بما عليها من تراب.
(٨) كاسبة صائدة.
(٩) المتجه يمنة.
(١٠) المتجه يساراً.

القُدْرةُ، حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصَّيْد. والله المنعم الوهَّاب».

فإذا عَزَمْتَ على المُضيِّ في قراءة الرسالة حتى تأتي عليها، فوطِّنْ نفسَك على المغامرة، وخذْ للطرد بالكلاب أُهْبَتَه، وللقنص بالبُزاة دُرْبَته، لأن براعة الكاتب في التصوير ستنزعُك من واقعك الذي يكنُفُك، وتُلقيك- شئتَ أم أبيت - في عالم تتصوَّره، فإذا أنت شريكُ الكاتب في الطِّرْد والقَنْص، ترسلُ الكلابَ على الثور، وتُسدِّدُ السهام على الحمر، وتُطلقُ الصقورَ على الطيور، وتذبح الفرائس، وتخضب كفَّيْك برشاش الدم.

وزبدةُ القول في رسائل الوصف أنَّ قلم عبد الحميد الكاتب أبْلَغَها غايتَها في الإتقان، ووفَّاها حقَّها من الإجادة، فإن كنت ممَّنْ يَرَوْنَ أن الأدبَ للمتعة لا للحياة وَجَدْتَ فيها ضالَّتَك.

هـ- استنباط السمات من رسالة واحدة

كنا قد خَتمْنا باب الخطابة بدراسة خطبةٍ واحدة دراسةً مفصَّلة، استخرجنا بها من هذه الخطبة سماتٍ فكريةً وفنية زعمنا أنها تمثل على سبيل التجوز لا الدقة سمات هذا الجنس الأدبي في العصر الأموي. وبعد أن سلكنا هذا المسلك خُيِّل إلينا أنه بأسلوبه التطبيقيّ أَعْوَدُ عائدةً، وأعظم فائدة من الدرس النظري، ولهذا رأينا أن ننهج النهجَ نفسه في هذا الباب.

لقد آثرنا أن نتخيَّر رسالةً لكاتب قضى أكثرَ حياته في العصر الأموي، وأقلَّها في العصر العباسي، وهو أبو حازم سَلَمةُ بنُ دينار المتوفى سنة مئة وأربعين هجرية، وقد وجَّه رسالته إلى محمد بن مسلم المعروف بابن شهاب الزهريّ المتوفَّى سنة مئة وأربع وعشرين هجرية. وهذا الاختيار يعني أن الكاتب كَتَبَ رسالته في العقد الأخير من عمر الدولة الأموية، وأن فنَّ الترسُّل كان قد تطوَّر وازدهر، وأن هذه الرسالة يمكنُ أن تتمثَّل سماتِ الترسُّل وتُمثّلها كلَّها أو جُلَّها، على وجه التقريب لا الدقة، وبعد التجوُّز والتسمّح فيما يُفضي إليه الدرسُ من أحكام.

١- نصّ الرسالة[١]

«١. عافانا الله وإياك أبا بكر من الفِتن، ورحمَك من النار، فقد أصبحْتَ بحال ينبغي لمن عرفَك بها أن يرحمَك. أصبْحَت شيخاً كبيراً، قد أثقلتْك نِعَمُ الله عليك، ممَّا أصحَّ بدنَك، وأطالَ من عمرك، وعلمت حججَ الله ممَّا حَمَّلَك من كتابه، وفقَّهك فيه من دينه، وفهَّمك من سنة نبيه ﷺ، فَرَمَى بك في كلِّ نعمة أنعمها عليك، وكلِّ حجة يحتجُّ بها عليك، الغرضَ الأقصى. ابتلى[٢] في ذلك شكرَكَ، وأبْدى فيه فضلَه عليك، وقد قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٧].

٢. انظر أيَّ رجل تكون إذا وقفْتَ بين يدي الله، فسألك عن نعمه عليك كيف رَعَيْتَها، وعن حُجَجه عليك كيف قضَيْتَها. ولا تحسبنَّ الله راضياً منك بالتعزير[٣]، ولا قابلاً منك بالتقصير. هيهاتَ!! ليس كذلك، أخذ على العلماء في كتابه: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٧].

٣. إنك تقول: إنك جَدِلٌ ماهرٌ عالم، قد جادلت الناس فَجَدَلْتَهم، وخاصَمْتَهم فخَصَمْتَهم، إدلالاً منك بفهمك، واقتداراً منك برأيك، فأين تذهبُ عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: ٤/ ١٠٩]؟ اعلم أنَّ أدنى ما ارتكَبْت، وأعظم ما احتقبْتَ أن آنست الظالمَ، وسهَّلْتَ له طريق الغي بدنوِّك حين أُدْنِيتَ، وإجابتك حينَ دُعيت، فما أخلَقَك أن يُنَوَّه[٤] باسمك غداً مع الجَرَمة[٥]، وأن تُسأل عمَّا أردت بإغضائِك عن الظَّلَمة!

٤. إنك أخذتَ ما ليس لمَنْ أعطاك، ودَنَوْت ممّن لم يردَّ على أحد حقّاً، ولا يردُّ باطلاً حين أدناك، وأجبت من أراد التدليس بدعائه إياك حين دعاك. جعلوك قُطْباً، تدور رحَى باطلهم عليك، وجسراً يعبرون بك إلى بلائهم،

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٠/ ٧٧.

(٢) اختبر.

(٣) كذا وردت، وفي «صفوة الصفوة» التعذير بالذال بمعنى التقصير أو الاعتذار مع عدم الإتيان بعذرٍ.

(٤) يُشهر به ويعرّف.

(٥) الجناة المذنبون.

وسُلَّماً إلى ضلالتهم، وداعياً إلى غيِّهم، سالكاً سبيلَهم، يُدخلون بك الشكَّ على العلماء، ويقتادون بك قلوبَ الجُهَّال إليهم. فلم يبلغْ أخصُّ وزرائهم ولا أقوى أعوانهم إلَّا دونَ ما بلغت من إصلاح فاسدِهم، واختلافِ الخاصَّة والعامَّة إليهم. فما أَيْسَر ما عمروا لك في جَنْب ما خربوا عليك!! وما أقلَّ ما أعطَوْك في قَدْر ما أخذوا منك!!

٥. فانظر لنفسك، فإنه لا ينظر لها غيرُك، وحاسبها حسابَ رجل مسؤول. وانظرْ كيف شكرُك لمن غذاك بنعمه صغيراً وكبيراً. وانظر كيف إعظامُك أمرَ مَنْ جعلَك بدينه في الناس مُبجلاً، وكيف صيانتك لكسوة من جعلك بكسوته ستيراً[١]، وكيف قربُك وبعدُك ممَّن أمرك أن تكون منه قريباً. ما لك لا تنتبه من نَعْسَتك، وتستقيلُ من عَثْرتك، وتقول: والله ما قمتُ لله مَقَاماً واحداً، أُحيِي له فيه ديناً، وأُميت له فيه باطلاً. إنَّما شكرُك لمن استَحمَلَكَ كتابَه، واستودَعَك علمَهُ. ما يُؤْمِنُك أن تكون من الذين قال الله عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٩].

٦. إنك لستَ في دار مُقام، قد أُوذِنْتَ بالرحيل. ما بقاءُ المرء بعد أقرانه؟ طوبى لمن كان في الدنيا على وَجَل! يا بؤسَ من يموتُ، وتبقى ذنوبُه من بعده. إنك لم تُؤْمَرْ بالنظر لوارِثك على نفسك. ليس أحدٌ أهلاً أن تُردِفَه[٢] على ظهرك. ذهبتِ اللذةُ، وبقيت التبعة. ما أشقى مَنْ سَعِد بكسبه غيرُهُ!! احذرْ، قد أُنبئتَ، وتخلَّصْ فقد وَهِلْتَ[٣]. إنك تعامل مَنْ لا يَجْهل، والذي يحفظ عليك لا يغفل. تجهَّزْ، فقد دنا منك سفر. وداوِ دينَك، فقد دخلَهُ سقمٌ شديد. ولا تحسبنَّ أني أردتُ توبيخك أو تعييرَك وتعنيفَك، ولكني أردتُ أن تنعش[٤] ما فاتَ من رأيك، وتردَّ عليك ما عزبَ من حِلْمِك. وذكرتُ قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٥].

٧. أغفلْتَ ذكر مَنْ مَضَى من أسنانِك وأقرانِك، وبقيتَ بعدهم كقَرْن أعضَبَ[٥]. فانظرْ هل ابتُلُوا بمثل ما ابتليتَ به، أو دخلوا في مثل ما دخلتَ فيه؟ وهل تراه ذَخَر لك خيراً مُنِعوه، أوعلَّمكَ شيئاً جهلوه؟ بل جهلتَ ما ابتليت به

(١) مستور.
(٢) تحمله.
(٣) ضعفت.
(٤) تتدارك.
(٥) مكسور.

في حالِك في صدور العامَّة، وكَلَفِهم بك أن صاروا يقتدون برأيك، ويعملون بأمرك. إنْ أَحَلَلْتَ أحلُّوا، وإن حَرَّمْتَ حرَّموا. وليس ذلك عندك، ولكريم[١] إكبابهم عليك، ورغبتهم فيما في يديك ذهابُ عماهم، وغلبة الجهل عليك وعليهم، وطلب حبّ الرئاسة، فطلبوا الدنيا منك ومنهم. أما ترى ما أنت فيه من الجهل والغِرة، وما الناس فيه من البلاء والفتنة؟ ابتليتهم بالشغل عن مكاسبهم، وفتنتهم بما رأوا من أثر العلم عليك، وتاقت أنفسهم إلى أن يدركوا بالعلم ما أدركت، ويبلغوا منه مثل الذي بلغت، فوقعوا بك في بحر لا يدرك قعره، وفي بلاء لا يقدّر قدره. فالله لنا ولك ولهم المستعان.

٨. اعلم أن الجاه[٢] جاهان: جاهٌ يُجريه الله على يدي أوليائه لأوليائه، الخاملِ ذِكرُهم، الخافيةِ شخوصُهم، ولقد جاء نعتُهم على لسان سيّدنا رسول الله ﷺ: «إن الله يحبُّ الأتقياءَ الأخفياءَ الأبرياء الذين إذا غابوا لم يُفْتَقدوا، وإذا شهِدوا لم يُعْرفوا. قلوبهم مصابيحُ الهدى، يخرجون من كلِّ فتنة سوداء مظلمة». فهؤلاء أولياءُ الله الذين قال الله عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢٢].

وجاهٌ يُجريه الله على يدي أعدائه لأوليائهم، ومِقَةٌ يقذفُها الله في قلوبهم لهم، فيعظِّمهم الناسُ تعظيمَ أولئك لهم، ويرغبُ الناسُ فيما في أيديهم كرغبة أولئك فيه إليهم ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١٩].

٩. ما أخوفَني أن تكون لمن ينظرُ كمن عاش مستوراً عليه في دينه، مَقْتوراً[٣] عليه في رزقه، معزولةً عنه البلايا، مصروفةً عنه الفتن في عنفوان شبابه، وظهور جَلَدِه وكمال شهوته، فَعُنِيَ بذلك دهرَه، حتى إذا كبِرت سنه، ودقّ عظمه، وضعفت قوته، وانقطعت شهوته ولذته، فتحت عليه الدنيا شرَّ مفتوح، فلزمتْه تبعتُها، وعلقتْه فِتنتها، وأعشت عينيه زهرتُها[٤]، وصفت لغيره مَنْفعتُها. فسبحان الله، ما أَبْيَنَ هذا الغَبْنَ[٥]!! وأخسرَ هذا الأمر!! فهلَّا إذا

(١) ولكريم.... كذا ورد في المطبوع وفيه اضطراب.
(٢) المنزلة والقدر.
(٣) مضيقاً.
(٤) زينتها وبهجتها.
(٥) النقص والخسران.

عَرَضتْ لك فتنتُها ذكرتَ أميرَ المؤمنين عمرَ ﷺ في كتابه إلى سعد، حين خافَ عليه مثلَ الذي وقعْتَ فيه عندما فتح الله على سعد: (أمَّا بعدُ، فأعرِض عن زهرة ما أنت فيه حتى تلقَى الماضين الذين دُفنوا في أسمالهم، لاصقةً بطونهم بظهورهم، ليس بينهم وبين الله حجاب، لم تفتنْهم الدنيا، ولم يُفْتَنوا بها، رغبوا فطلبوا، فما لبثوا أن لحقوا).

١٠. إذا كانت الدنيا تبلغُ مِن مثلك هذا في كبر سنِّك، ورسوخ علمك، وحضور أجلك، فمن يلومُ الحدثَ في سنِّه، الجاهلَ في علمه، المأفونَ[١] في رأيه، المدخولَ[٢] في عقله؟ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾. على مَنْ المُعَوَّلُ؟ وعند مَنْ المُسْتَعْتَبُ؟ نحتسب عند الله مصيبتَنا، ونشكو إلى الله بثَّنا[٣] وما نرى منك، ونحمدُ الذي عافانا ممَّا ابتلاك به. والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته». انتهى نصُّ الرسالة.

٢- كاتب الرسالة ومَنْ أُرسِلتْ إليه

لا يستطيعُ قارئ هذه الرسالة أن يدرك ما انطوتْ عليه من دوافع وأفكار وأهداف حتى يقفَ على أخبار من كتَبَها، وأخبار من أُرسِلت إليه، لأن محورها وجوهرها النصحُ والنقد، والنقدُ مرتبطٌ المعاني والمرامي بأخلاق الناقد وسلوكه ومفاهيمه في الحياة، وبأخلاق المنقود وسلوكه ومفاهيمه. أمَّا كاتبُ الرسالة[٤] فهو أبو حازم سَلَمة بن دينار المخزومي بالولاء [ت: ١٤٠هـ] وهو الإمام القدوة، عالم المدينة وقاضيها وشيخها. رُويتْ عنه أخبارٌ، وقيلت فيه أقوال كثيرة تُجْمع على توقيره وإكباره، وتكشفُ عن طباعه. ورُويتْ له أقوال كثيرة تحقِّر الدنيا وتعظّمه، وتضعها وترفعه، وتكبِّره في أعين الناس:

قال ابن خزيمة: إنه ثقةٌ، لم يكن في زمانه مثلُه.

وقال عبد الرحمن بن زيد: ما رأيت أحداً الحكمةُ أقربُ إلى فيه من أبي حازم. وقيل: إن بعض الأمراء أرسل إلى أبي حازم، فأتاه وعنده الزهريُّ

(١) ضعيف العقل والرأي.
(٢) من خالط عقله حمق أو أفن.
(٣) الحزن والغم.
(٤) انظر: سير أعلام النبلاء ٦/ ٩٦، ومختصر تاريخ دمشق ١٠/ ٦٥، والأعلام للزركلي.

والإفريقيُّ وغيرهما. فقال: تكلَّم يا أبا حازم، فقال أبو حازم: إن خيرَ الأمراء من أحبَّ العلماء، وإن شرَّ العلماء من أحبَّ الأمراء.

وممَّا روي عنه أنه قال: اشتدَّت مؤنة الدين والدنيا. قيل: وكيف؟ قال: أمَّا الدين فلا تجدُ عليه أعواناً. وأمَّا الدنيا فلا تمدُّ يدك إلى شيءٍ منها إلّا وجدت فاجراً قد سبقك إليه.

ومن كلامه: نعمةُ الله فيما زوى عني من الدنيا أعظمُ من نعمته فيما أعطاني منها، لأني رأيته أعطاها قوماً هلكوا.

ومن كلامه: ما أحببتَ أن يكون معك في الآخرة فاتركْه اليومَ. ومنه: كلُّ عمل تكره من أجله الموتَ فاتركه، ثم لا يضرُّك متى متَّ.

وطلب منه أميرُ المدينة أن يتكلَّم، فقال: انظر الناسَ ببابك، إن أدنيتَ أهلَ الخير ذهبَ أهلُ الشرِّ، وإن أدنيت أهلَ الشرِّ ذهب أهلُ الخير.

وقال لرسول سليمانَ بنِ عبد الملك حينما دعاه إلى زيارة الخليفة: إنْ كانت له حاجةٌ فليأتِ. وأمَّا أنا فما لي إليه حاجة.

وأمَّا الزهريُّ[1] الذي أرسلت الرسالةُ إليه فهو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهريّ القرشي [ت: ١٢٤هـ] ويُسمَّى اختصاراً بابن شهاب، فصَّل شمسُ الدين الذهبي القول في ترجمته، وممَّا قال فيه: هو إمام العلم وحافظُ زمانه، ذكره ابنُ أخ له فقال: جمع عمِّي القرآنَ في ثمانين ليلة. قال ابن حنبل: الزهريُّ أحسنُ الناس حديثاً وأجود الناس إسناداً.

وقال عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً أنصَّ للحديث من الزهري. وما رأيت أحداً أهونَ عنده الدراهمُ منه.

وقيل للزهري: لو أنك سكنْتَ المدينةَ، ورحتَ إلى مسجد رسول الله ﷺ وقبره، تعلَّم الناسُ منك. قال: إنه ليس ينبغي أن أفعلَ حتى أزهد في الدنيا، وأرغبَ في الآخرة.

وقال مكحول: أيُّ رجل هو، لولا أنه أفسدَ نفسَه بصُحْبة الملوك.... وبعضُ من لا يُعْتَدُّ به لم يأخذْ عن الزهري لكونه مُداخلاً للخلفاء.

---

(١) سير أعلام النبلاء٥/ ٣٢٦ وما بعد.

وقيل فيه: كان، رحمه الله، محتشماً جليلاً بزِيِّ الأجناد، له صورةٌ كبيرة في دولة بني أمية.

ومن أقواله: إنَّما يُذْهِبُ العلمَ النسيانُ وتركُ المذاكرة.

والله ما نشَر أحدٌ العلمَ نشري، ولا صبَرَ صبري.

ما استودعتُ قلبي شيئاً قطُّ، فنسيته.

إذا قارنتَ مَنْ كتبَ الرسالة بمن كُتِبتْ له وجدتَ أنهما يلتقيان ويفترقان: يلتقيان في ملتقىً واحدٍ، هو التفقُّه في الدين، والاشتغالُ بالعلم، والدرسُ والتدريس، ثم يفترقان في النظر إلى الحياة والحكام. فالأولُ عابدٌ زاهد، ينفر من الخلفاء والأمراء، ولو تودَّدوا إليه، ولا يُقيم وزناً للشهرة والمكانة والحظوة عند أُولي الأمر، ويُعْرض عن المتارف كأنَّه مُتَّعِظ بقوله ﷺ[1]: «..... فو الله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تُبْسَط الدنيا عليكم كما بُسِطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها. فَتُهلِكَكم كما أهلكتهم».

والثاني كريمٌ مِثْلاف، كسوبٌ وهوبٌ، مقْبل على الدنيا، لا يجد غضاضة في مجالسة الخلفاء ومؤانستهم، ويأسفُ أشدَّ الأسف لأنه لم يستطع أن يزهدَ في الدنيا، وأن يخشوشنَ ويتقشَّف، ويعترفُ بأنه يصيبُ ممَّا أباح الله من زهرة الحياة، كأنه آخذٌ بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٢].

٣- سبب كتابتها

ذكرت كتب التراجم أنَّ ابنَ شهاب الزهري ركبه دَيْنٌ أعياه قضاؤه، فاضطر إلى الاستعانة ببني أمية. سرد شمس الدين الذهبي خبر الزهري مفصَّلاً[2]، ورأينا أن نجتزئ منه ما يُخَيَّلُ إلينا أنه حَمَل أبا حازم على أن يبعثَ بالرسالة السابقة إلى الزهري.

قال ابن شهاب: «أصاب أهلَ المدينة حاجةٌ زمانَ فتنة عبد الملك، فعمَّتْ. فقد خُيّل إليّ أنه أصابنا - أهلَ البيت - من ذلك ما لم يصبْ أحداً، فتذكَّرت:

(١) بعض من حديث متفق عليه، رياض الصالحين/ ١٨٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٢٦ وما بعد.

هل من أحدٍ أخرجُ إليه؟ فقلت: إن الرزق بيد الله، ثم خرجتُ إلى دمشق». وقال الذهبي: «ضاقت حالُ ابن شهاب، ورهقه دين، فخرج إلى الشام، فجالس قَبِيصةَ بنَ ذؤيب-[وكان على خاتم عبد الملك]- قال ابنُ شهاب: فبينا نحن معه نسمُر إذْ جاءه رسول عبد الملك، فذهبَ إليه، ثم رجع... قال: قُمْ، فأدخلني على عبد الملك بن مروان... قلتُ: يا أمير المؤمنين، اقضِ ديني. قال: نعمْ. قلتُ: وتفرِضُ لي. قال: لا والله، لا نجمعُهما لأحد... فخرجتُ والله مُؤيساً من كلِّ شيء خرجتُ له، وأنا يومئذٍ مُقِلٌّ مُرْملٌ. ثم خرج قَبيصةُ، فأقبل عليَّ لائماً لي.... ثم غدوتُ إليه من الغد، فأدخلني على أمير المؤمنين، وقال: إيّاك أن تكلمه بشيء، وأنا أكفيك أمرَهُ. قال: فسلَّمت، فأومأَ إليَّ أن اجْلِسْ....ثم قال لي: قد فرضتُ لك فرائضَ أهلِ بيتك. ثم أمر قبيصةَ أن يكتبَ ذلك في الديوان. ثم قال لي: أينَ تحبُّ أن يكون ديوانُك مع أمير المؤمنين؟ أَههنا أم في بلدك؟ قلتُ: يا أمير المؤمنين أنا معك. ثم خرج قَبيصةُ، فقال: إن أمير المؤمنين أَمَر أن تثبتَ في صحابته، وأن يُجْري عليك رزقَ الصحابة، وأن يرفعَ فريضتَك إلى أرفعَ منها، فالزمْ بابَ أميرِ المؤمنين. وكان على عرض الصحابة رجلٌ، فتخلَّفْتُ يوماً أو يومين، فَجَبَهني جَبْهاً شديداً، فلم أتخلَّفْ بعدها».

إذا أعدت النظر في هذا القسم من الخبر استطعت أن تخرجَ منه بأمور: أوَّلُها أن ابن شهاب قصد الخلافةَ ولم يُدْعَ إليها، فهو سائلٌ لا مجيبٌ، ومتطفِّلٌ لا ضيفٌ.

والثاني أنه تجشَّم مشقَّة السفر لدنيا يصيبها لا لطاعة يؤدِّيها، فهجرتُه إلى ما هاجر إليه.

والثالثُ أنه بدأ بقضاء الدَّيْن، ثم استعطى الأعطيةَ، ثم استلان العيشَ في صُحْبة الخليفة، فقال لعبد الملك: أنا معك يا أمير المؤمنين، كأنه أراد أن ينزعَ جذوره من محراب العلم، ويغرسها في خزانة المال.

والرابعُ أنه حَرَص على صحبة الخليفة ليكونَ واحداً من سُمَّاره، ولأهل العلم مجالسُ أخرى.

والخامسُ أنه أذلَّ نفسه لصاحب الديوان، وأطاعَ القَيِّمَ على مُراقبة الدوام إطاعة التلميذ الغرِّ للمشرف العُتُلّ. ترى أقنعَ الزهريُّ بما جمع أم انقلبتْ عنده القناعةُ إلى طماعة؟

عن هذا السؤال يجيبُ الزهري نفسُه، فيقول: «تُوفّي عبدُ الملك، فلزمتُ ابنه الوليدَ، ثم سليمانَ، ثم عمرَ بن عبد العزيز، ثم يزيد، فاستقضى يزيدُ بنُ عبد الملك على قضائه الزهريَّ، وسليمان بنَ حبيب جميعاً. قال: ثم لزمتُ هشامَ بن عبد الملك، وصيَّر هشامٌ الزهريَّ مع أولاده، يعلِّمهم، ويحجُّ معهم».

لمّا كان الاعترافُ أدلَّ الأدلة على الحقيقة، فإنك- مهما تنوِّه بعلم الزهريّ وحفظه- تظلُّ عاجزاً عن تبرئتِه من حبِّ الدنيا، والانسلاخ عن العامَّة، والالتصاق بأولي الأمر، والانغماسِ في النعيم.

قد تقول: وما علاقة ذلك كله بأبي حازم سلمة بن دينار وبرسالته؟

يغلبُ على ظننا أن الزهريَّ كان يستثير ابنَ دينار حينما يباهي بما هو فيه، ويُدِلُّ بمكانته على الذين آثروا الآخرة على الدنيا، والزهادةَ والعبادة على الترف والسرف، فيردُّ عليه أبو حازم ردّاً يفحمه ويلجمه. قال ابن عساكر[1]: «قال الزهريُّ لسليمانَ أو هشام: ألا تسألُ أبا حازم عمَّا قال في العلماء؟ قال: يا أبا حازم، ما قلتَ في العلماء؟ قال: وما عسيتُ أن أقول في العلماء إلّا خيراً. إني أدركتُ العلماء وقد استغنوا بعلمهم عن أهل الدنيا، ولم يستغنِ أهلُ الدنيا بدنياهم عن علمهم. فلمَّا رأى ذلك هذا - يعني الزهري- وأصحابه تعلَّموا العلمَ، فلم يستغنوا به، واستغنى أهلُ الدنيا بدنياهم عن علمهم. فلمَّا رأَوْا ذلك قذفوا بعلمهم إلى أهلِ الدنيا، ولم يُنْلْهُم أهلُ الدنيا من دنياهم شيئاً، إن هذا وأصحابه ليسوا علماء. إنما هم رُواة».

تستطيع أن تستنبط من كلام أبي حازم سببَ ما كتب، وهو أن الزهريَّ استمرأَ الثراء الأمويَّ والنعيم الدمشقيَّ، فأنساهُ الترفُ ما يَدَّرِعُه العلم والعالم من الشرف، فأحبَّ أن يُحْرج نديدَه في حضرة الخليفة بسؤال يُرْبكه، أو يحمله على النطق بغير ما يعتقدُه، فيرميه حينئذٍ بالجبن والخوف والكذب. ولعلَّه قدَّر في نفسه أن أبا حازم لن يجرؤَ على أن يجيب الخليفة إجابةً صريحة، أسكتت السائل والسامع، وأطلقتْ حنجرة المجيب. وعلَّةُ ذلك أن كلَّ ما يحرصُ الزهريُّ على احتجانه لم يكن له عند أبي حازم شأنٌ ولا وزن، فأخطأ التقدير.

(١) مختصر تاريخ دمشق١٠/ ٦٧.

ويُخَيَّلُ إلينا أن بضاعة الزهري صادفتْ رواجاً عند الخليفة، وبواراً عند الناس، وأن الزهري نفسه، مع أنه احتمى بحمى الخليفة، كان ريحاً لاقت إعصاراً، فطار به إعصار نديده أيَّ مطير، وأنه بعد هذا الموقف أرسلَ إليه تلك الرسالة القارعة القامعة ليعزِّفه قدره، وينضوَ عنه مجد السلطة، قد تقول- وقد يكون قولُك أقرب إلى الصواب- لم يكن أبو حازم في حاجة إلى موقف كهذا الموقف حتى يكتب ما كتب، ويدمغ به ابنَ شهاب، فقد أُثِرت عنه أقوال كثيرةٌ تبرِّئه من السخط، وتربأُ به عن الانتقام، وترقَى بالعلم والعلماء إلى منزلة مثالية، تقارب منازل الأولياء والأنبياء، فهو في الرسالة ناصحٌ لا قادح، ومُداوٍ لا جارح. ومن أقواله التي ذكرها ابنُ عساكر[1]:

«إن خير الأمراء من أحبَّ العلماء، وإن شرَّ العلماء من أحبَّ الأمراء، وكان فيما مضى إذا بعث الأمراءُ إلى العلماء لم يأتوهم، وإذا أعطوهم لم يقبلوا منهم، وإذا سألوهم لم يرخّصوا لهم. وكان الأمراء يأتون العلماءَ في بيوتهم ويسألونهم، وكان في ذلك صلاحٌ للأمراء، وصلاحٌ للعلماء. فلمَّا رأى ذلك ناسٌ من الناس قالوا: ما لنا لا نطلبُ العلم حتى نكونَ مثل هؤلاء؟ فطلبوا العلمَ فأتوا الأمراءَ، فحدثوهم، فرخَّصوا لهم، وأعطوهم، فجرؤتِ العلماءُ على الأمراء، وجرؤتِ الأمراء على العلماء».

٤- الأفكار الأساسية

إذا أعدت النظر في رسالة أبي حازم إلى الزهريّ وجدتها مقسمةً إلى عشرة أقسام مقيدة بأرقام، تعاقبتْ فيها أفكارُ الكاتب وفق تسلسل معقول، لكنه لا يلتزم الدقة المطلقة التي تميز فكرةً من فكرة، ولا التوزيع المنطقيَّ الذي يخصُّ كلَّ فقرة من عشر الفقرات بفكرة تستقلُّ بها، ولا تسمح لمعنى آخر أن يلابسها، بل قد تتداخل الأفكار وتتكامل، وتداخلها وتكاملها لا يعنيان الاضطرابَ والتشعُّثَ، بل يبثَّان في تضاعيف النصّ روحَ الاتحاد والترابط، فإذا هو، على طوله، نسيجٌ متجانس لا استطرادَ فيه ولا تنافر. وإليك الفكرةَ الأساسيةَ في كل فقرة:

(١) مختصر تاريخ دمشق١٠/ ٦٧.

- في الفقرة الأولى أطرى أبو حازم شيخوخةَ الزهريِّ، وأثنى على علمه، وحثَّه على أن يحمد الله على ما أولاه.
- وفي الثانية حمَّله تَبِعةَ العلم الذي حصَّله، وتبعتُهُ أن يعلِّمه الناسَ لا أن يدفنه في صدر عالم أو قصر حاكم.
- وفي الثالثة عرَّض بما افتخر به الزهريُّ من سعة العلم والبراعة في الجدال، وطالبه بأن يسخّر براعته للدفاع عن حقوق الرعية المظلومة، لا لتسويغ ما يقترفه الرعاة الظلمة.
- ولامه في الرابعة على ما أرخصَ من علمه ودينه، لأنه جعل نفسه مطيةً ذلولاً، تبلِّغ الحكامَ مقاصدهم.
- ونصحَ له في الخامسة بالتوبة، لعله يُحيي بعلمه ما أمات الحكام من الدين، ولا يسوِّغُ به تماديهم في الباطل.
- وفي السادسة ذكَّره الموتَ لئلا يترك ماله للورثة، ويحمل أوزاره إلى القبر، فيندم، ولاتَ ساعة مَنْدَم.
- ونبَّهه في السابعة- وهي أهمُّ الفقرات- على خطورة مسلكه المنحرف، لأنه يُفْسد دينَ العامة، حينما تحاكيه، وتُجاريه فيما هو فيه، فتزلُّ كما زلَّ، وتضلُّ كما ضلَّ.
- وسخر في الثامنة من المكانة التي تبوَّأها عند الحكام، وبيَّن له أن مكانة العالم المتواضع لله أرقى وأبقى، وأكرمُ وأعظم من المجد الزائل الذي يرفل في أباطيله.
- وفضح في التاسعة سخفَ مَسْلَكه، وفداحة خسارته، لأنه يبيعُ دينه، ويشتري شهواتٍ يعجز عن التمتُّع بها بعدما أدركه الهرم، ويكسبُ مالاً، لا يبتاع به غير الآثام.
- وحذَّره في العاشرة أن يجعلَ نفسه أُسوةً سيئةً، يتأسَّى بها علماء السوء، فيحمل بما ابتدع أوزارَه وأوزار غيره على ظهره.

٥- السمات الفكرية والفنية

تخيَّرنا رسالة سلمة بن دينار لأمور: أوّلها أن موضوعها عربيٌّ إسلامي

خالص، لا صلة له من قريب أو من بعيد بأدب الفرس وفلسفة اليونان. وثانيها أن كاتبها- وإن كان فارسيَّ الأصل كعبد الحميد الكاتب- فإنه لم يتأثَّر أدنى تأثر بأصله القديم. والثالث أنها متوسطة بين القصر والطول، فلم تقصر فتطير بها ساق من سوق حمام الزاجل، ولم تطلْ، فيوقر بها ظهرُ جَمَل من جمال عبد الحميد. والرابع أنَّها لم تُصِبْ من الشهرة ما أصابت رسائل عبد الحميد التي أكبَّ الدارسون المحدثون على درسها وتحليلها لكي يثبتوا أن فنَّ الترسل في العصر الأموي تأثَّر بالثقافات الأجنبية. والخامس أنَّها تُمثِّل أبرز السمات الفكرية والفنية التي تجلّت في الرسائل الأموية. فما هذه السمات؟

أ) تجلي الفكر الإسلامي

إن أخصَّ الخصائص الفكرية المتجلِّية في هذه الرسالة صدورها فكراً وروحاً وغايةً عن الإسلام. وهذه الخاصّةُ تطالعك من الجملة الأولى، وتظلُّ تواكبك حتى تفرغ من قراءتها. بدأ الكاتب بالتضرُّع إلى الله أن يعصمَ العلماء من الزيغ: «عافانا الله وإياك من الفتن...» وختم بالشكوى من المصيبة: «ونشكو إلى الله بثنا..» وبين البداية والنهاية لا يقع بصرُ القارئ إلَّا على آية ذُكرت بمعناها ومبناها نحو: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٧] ونحو: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٧] ونحو: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ﴾ [النساء: ٤/ ١٠٩] أو على حديث شريف روي بلفظه: «إن الله يحبُّ الأتقياء..» أو على خبر من أخبار الصحابة عليهم رضوان الله، احتجّ به، لصلته بموضوع الرسالة ككتاب عمر إلى سعد. فإن لم يجدْ آي الذكر الحكيم بمبانيها وجد معانيها، وإن لم يقع بصره على البيان النبوي، وقع قلبه على معانيه، وهكذا يظلُّ ينتقل بين التوجيهات الإسلامية والمواعظ الدينية من فاتحة الرسالة إلى خاتمتها. وعلَّة ذلك أن المرسِل والمرسَلَ إليه من الحفّاظ الوعّاظ، المشتغلين بالحديث، المتفقهين في الدين، ذكر الذهبي في حديثه عن أبي حازم أنه روى عن خمسة عشر حافظاً منهم الصحابي، ومنهم التابع، وسمَّى في كلامه على الزهري أكثر من ثلاثين حافظاً من أعلام الصحابة والتابعين، وقال: له نحو ألفي حديث. لقد خاطب أبو حازم الزهريَّ قاصداً أو غير قاصد بما يعلمه ويفهمه على سبيل التذكير، لا على سبيل التعليم، فجاءت رسالته مُتمحِّضة للفكر الإسلامي.

ولا تخطئ إذا عممت هذه السمة على الرسائل السياسية والاجتماعية

ورسائل الوعظ التي تحدّرت إلينا من العصر الأموي، لأن القسم الأعظم من هذه الرسائل صدر عن المصدر نفسه؛ وهو الفكر الإسلامي الذي صَبغ بالصبغة الدينية أدب العصر الأموي السياسي والاجتماعي كلَّه أو جلَّه.

ب) وحدة الموضوع وخطورته

عالج ابنُ دينار في رسالته السابقة موضوعاً من أخطر الموضوعات التي شغلتِ الساسةَ والقادة والعلماء والقضاة في العصر الأموي. وامتدتْ آثاره إلى العصور اللاحقة. وخطورةُ الموضوع تنجم عن الحرج المربك في علاقة الدين بالسلطة، أهي علاقة مرافقة، أم علاقة مفارقة؟ لقد حرص الخلفاء والولاة طوالَ العصر الأموي على أن يتألَّفوا العلماء كما حَرَصوا على أن يتألَّفوا الشعراء، وحاولوا أن يبسطوا رعايتهم على هؤلاء وهؤلاء لئلا يسيروا في ركابِ الأحزاب، فينقلبوا من مؤيِّدين إلى منددِّين. أمَّا العلماء والفقهاء فمنهم مَنْ هادن وداهنَ، واستلان الرغد ولايَنَ، فانتظم في سلك المظاهرين، واصطنعه الخلفاءُ، وضمُّوه إلى حاشيتهم، فجالسهم وآنسهم كابن شهاب الزهري. ومَنْ آثر الآخرة على الدنيا، والأمَّةَ على الدولة، رفضَ الانضواء تحت آباط الخلفاء، وحمل لواء المعارضة، أو التزم الحياد، لكنه ظلَّ حَرْباً على الزيغ والانحراف والفسوق، وجهرَ بالحق في كلِّ موقف، ومنهم أبو حازم سلمة بن دينار.

ورسالتُه هذه تعالج علاقة العلماء بالأمراء خير معالجة. ومع أنها تبدو طويلةً، إذا قيست بغير ما كتب عبدُ الحميد، فإنها حافظتْ على وحدة الغرض. ولم يكن تقسيمها إلى عشرة أقسام دليلاً على التعدُّد والتشتُّت، وإنما كان دليلاً على التوحُّد وعلى براعة الكاتب في إدارة معانيه المتكاملة حول محور واحد أو موضوع واحد، تستطيعُ أن تسميه على سبيل التجوُّز «العلماء والأمراء». وجوهر الموضوع أن أبا حازم يُنكر سيطرة الأمراء على العلماء، أو التحاق العلماء بالأمراء، سواءٌ أصانعوهم أم لم يصانعوا، وحجَّته أنَّ انضواء العالم تحت ضِبْن الحاكم يُعَدُّ انتصاراً للدنيا على الدين، والطمع على الورع، والباطل على الحق.

ويبدو أن هذه الرسالة وأمثالها من أقوال أبي حازم ومواقفه لم تخفت أصداؤها بعد موته، بل امتدَّت آثارُها من نهاية العصر الأموي إلى العصر

العباسي فأبو حنيفةَ النعمانُ بن ثابت [ت: ١٥٠هـ] أراده أبو جعفر المنصور على القضاء، فأبى، فسجنه، وبقي سجيناً حتى مات. وعبدُ الرحمن بن عمرو الأوزاعي [ت:١٥٧هـ] أعرضَ عن الحكام، وزهدَ في المناصب، فأصبح عند الناس أعزَّ مكانة من السلطان. وسفيانُ بن سعيد الثوري [ت:١٦١هـ] راوده المنصورُ على أن يتولَّى منصباً في الدولة، ففرَّ منه، وتوارى، لكنه ظفر بتقدير الأمة ومحبتها الصادقة. وعلى هذا الأساس تستطيعُ أن توسِّعَ أفق الموضوع. وتمدَّ أطراف الفكرة، فتجد فيها طيفاً من موقف سياسيّ، وظلاً من مشكلة اجتماعية، وبعضاً من توجيه خلقي، وصدى لتوجيه تربوي، وإن كانت في الظاهر رسالةً وعظية خاصَّة، يوجِّهها فقيهٌ إلى فقيه،لم يَرْضَ عن تودُّدِه إلى السلطة. وعن هذه الأمور تتحدث السمة الثالثة.

ج) أبعادها السياسية والاجتماعية

أظهرُ ما في الرسالة الوعظُ الدِّيني المشفوعُ بالأدلة القطعية، المؤيَّدُ بالأحاديث النبوية، والأحداث التاريخية. غير أنك تبخس الرسالةَ حقَّها، وتغمطُها عمقَها، إذا لم تبصر منها غير ما يطفو على السطح من النصح. إن تحت هذا السطح نقداً سياسياً يحلّل فيه أبو حازم مفاسد الحكم الأموي ويتهم أربابه ومن والاهم بالظلم، ويصبُّ القدر الأعظم من نقده على الممالئين- ومنهم الزهري- ويتهمهم بالنفاق والملق، والتزلّف والتكسب بلا تحرّج ولا تأثم.

وأسوأُ ما في موقف الزهريّ وأمثاله أنَّ مصانعة العالم للحاكم تسوِّغُ حكمه وظلمه، وتوحي إلى عامة الناس أنه إمام عادل. والعالمُ المصانع في هذه الحالة شريكُ الحاكم في الجريمة لأنه شريكُه في الغنيمة، وسيكون شريكه في المسؤولية يوم القيامة كما كان شريكه في السرف والانتهاز في الدنيا. قال أبو حازم في الفقرتين الثالثة والرابعة من رسالته:

«واعلمْ أن أَدْنى ما ارتكبتَ، وأعظمَ ما احتقبْتَ[1] أن آنستَ الظالمَ، وسهَّلْتَ له طريقَ الغيِّ بدنُوك حين أُدنيتَ، وإجابتك حين دُعيت. فما أخلَقَكَ أن يُنَوَّه باسمك غداً مع الجَرَمة، وأن تُسْأل عمَّا أردت بإغضائك[2] عن ظلم

(١) جمعت وادخرت.
(٢) سكوتك.

الظَّلَمَة!! إنك أخذتَ ما ليس لمن أعطاك، ودنوتَ ممَّن لم يردَّ على أحد حقّاً، ولا يردُّ باطلاً حين أدناك، وأجبتَ مَنْ أراد التدليس[1] بدعائه إيَّاك حين دعاك. جعلوك قُطْباً، تدورُ رحى باطلهم عليك، وجسراً يعبرون بك إلى بلائهم، وسُلَّماً إلى ضلالتهم».

وذهبتِ الرسالةُ إلى أن المسلك الذي سلكه الزهريُّ يفسد سلوك العامَّة بإفساده سلوك الخاصَّة، ويصيبُ بالضرر والخطر الحياة الاجتماعية، كما أصاب بالضرر والخطر الحياة السياسية. وفحوى ذلك كلِّه أن العالم في نظر الأمة قدوة، يُقْتَدى بها، لأنه يعلمُ من الدين والقيم ما لا تعلمُ، ويفهم من الشريعة والأحكام ما لا تفهم، ففتياه حقّ، وقوله تشريع، ومسلكه دين، إنها تحاكيه فيما يأتيه، فتتأسّى به في المقاومة إن قاوم، وفي المساومة إن ساوم، وتقلده في موادعة الخلفاء وملاينة الولاة إن وادع ولاين، ولا ترى في موادعته تزلُّفاً، ولا في ملاينته تملُّقاً، بل ترى فيهما حسنَ الخلق وسعةَ الصدر، فتسلكُ مسلكَه، وينزلقُ بها هذا المسلك من حيث لا تشعر إلى مَهْواة النفاق، والسكوت على الباطل، وبذلك يكون العالم مسؤولاً عن تدمير القيم والشيم، وإفساد الأخلاق، وإشاعة الانحراف. جاء في القسم السابع من الرسالة: «جهلتَ ما ابتليتَ به في حالك، في صدور العامَّة، وكَلَفهم بك أن صاروا يقتدون برأيك، ويعملون بأمرك، إن أَحْلَلْتَ أحلُّوا، وإن حرَّمت حرَّموا». وجاء فيها أيضاً: «وفتنتهم بما رأوا من أثر العلم عليك، وتاقتْ أنفُسهم إلى أن يدركوا بالعلم ما أدرَكتَ، ويبلغوا منه مثل الذي بلغت، فوقعوا بك في بحر، لا يُدْرَك قعرُه، وفي بلاء، لايُقدَّر قَدْرُه».

د) عمق المشاعر وصدقها

لا يتوقَّع القارئُ أن يجد في رسالة يكتبها فقيهٌ رزين مشاعرَ عنيفة، فالنثرُ بصورة عامَّة لغةُ العقل لا لغة القلب، ورزانةُ الترسُّل تكبحُ جماحَ الانفعال، وتجنِّب الكاتبَ توتُّر الشاعر، وتفجُّر الخطيب، وتقيِّد قلمَه بقيود الحكمة والمنطق، وتتيحُ له أن يتريَّث ويتلبَّث ليفثأَ الغضبَ إن ثار، ويطفئَ الحقد إن تضرّم. فلماذا طغتْ عواطفُ أبي حازم على أفكاره في هذه الرسالة؟

---

(١) الخداع.

قد تقول: إن الشيخَ اسْتُغْضِب فغَضِبَ، واستثير فثار، ثم تشفعُ الرأيَ بالدليل، فتقول: إن ابن شهاب الزهري كان قد أَسْخط أبا حازم حينما سأله في حضرة هشام بن عبد الملك أو أخيه سليمان عن رأيه في العلماء، وإن هذا السؤال بما انطوى عليه من مُباهاة الزهريّ بمجده المستعار، والانتقاص من أبي حازم البعيد عن أولي الأمر حرَّك المواجد في قلب المسؤول فلم يجبْ بعقله، بل قذَفَ قلبهُ على لسانه شواظ الغَيْظ فكانت هذه الرسالة، فإذا الانتقام فيها أعنفُ من الاعتداء، والعقابُ أكبر من الذنب. يُؤخَذُ برأيك إذا ثبت أن أبا حازم كتبَ هذه الرسالة بعد الموقف المُربك الذي وضعَه فيه الزهريُّ. وهَبْه ثبتَ، فأبو حازم نفسُه يُنكر إنكاراً صريحاً أنه رمى في رسالته إلى الثأر والتجريح، ويقرِّرُ أنه يُذكِّر ولا يُعيِّرُ، صادعاً بما أمر الله به. قال أبو حازم في الفقرة السادسة من الرسالة:

«ولا تحسبنَّ أني أردتُ توبيخك أو تعييرَك وتعنيفَك، ولكني أردتُ أن تنعش[1] ما فاتَ من رأيك، وتردَّ عليك ما عزَبَ[2] من حلمك. وذكرتُ قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٥]».

يُخيَّل إلينا أن علة العمق والصدق في المشاعر الكامنة في الرسالة صدورُها عن عقيدة وَقَرَتْ في العقل والقلب جميعاً، لا عن انفعال تخلَّج أو توهَّج في القلب وحدَه، ونقلته الأعصابُ إلى اللسان، فهدَرَ ثم هدأ، كما تُفرغ الصاعقةُ غَضْبَتها في لمعة برق، وقصفة رعد، ثم يلتئمُ الغيمُ بعد أن يتمزَّق، ويسكنُ الأفق بعد أن يضجّ.

وأدلُّ ما يدلُّك على صحة ما زعمنا أن العواطف التي انطوتْ عليها الرسالةُ لم تكن وقفاً عليها، بل كانت تشعُّ من كلِّ ما قاله أبو حازم أو فعلَه قبل الرسالة وبعدها. فهي إذن ليست وليدةَ حدث عابر، تنقضي بانقضائه، وإنما هي بنتُ عقيدة رسختْ في قلب الكاتب، وتجلَّت في آثاره كلِّها.

في القسم الثالث من الرسالة تتراءَى لك عاطفةُ السخر، فأبو حازم سخِر من تكبُّر الزهري بعلمه، ومن ازدهائه بجدله، واعتزازه بعمق الفهم وقهر

(١) تتدارك.
(٢) ذهب وبَعُدَ.

الخصم، فقال: «إنك تقولُ: إنك جدل ماهر عالم، قد جادلتَ الناسَ فَجَدلتهم[١]، وخاصمتَهم فخصَمْتهم، إدلالاً[٢] منك بفهمك، واقتداراً منك برأيك». وروى الذهبي عن أبي حازم قولاً كهذا القول، جاء فيه[٣]: «لا تكون عالماً حتى يكون فيك ثلاثُ خصال: لا تبغ على من فوقك، ولا تحقر من دونك، ولا تأخذ على علمك دنيا». والزهري لم ينته عن شيء من الثلاث.

ومن أعمق المشاعر وأصدقها احتقارُ الدنيا والشوقُ إلى الآخرة، والإحساس بهذين الأمرين حمل أبا حازم على التعجُّب من الزهري، والإشفاق عليه، لإقباله على الحياة الهاربة منه، بعدما شاخ، وانطفأت غرائزه، وزايلته القدرة على التمتع بما يصيبه من جوائز الخلفاء. إن الزهريّ في نظر أبي حازم يعمر دنيا غيره بتخريب آخرته، فهو يتذلَّل للحكام ليمنّوا عليه بثروة يورثها غيره، ولا يحمل معه إلا أوزارَ ما وَزَر. جاء في القسم السادس من الرسالة: «إنك لست في دار مقام، قد أُوذنْتَ بالرحيل، ما بقاءُ المرء بعد أقرانه؟ طوبى لمن كان في الدنيا على وَجَل. يا بؤسَ مَنْ يموت وتبقى ذنوبُه من بعده!! إنك لم تُؤمَر بالنظر إلى وارثك على نفسك. ليس أحدٌ أهلاً أن تُرْدِفه على ظهرك. ذهبت اللذةُ، وبقيت التبعة، ما أشقى من سعد بكسبه غيرُه!».

إن هذه المشاعر الإنسانية الموغلةَ في الزهد، المتساميةَ بالورع، المُثْقلة بالخوف من الله، المُرْهقة بالتبعة، المؤرقة بالهمِّ، لا يُمكن أن تكون هيجةً ثائرة، أو موجةً عابرةً، ولا يمكن أن تكون ردّاً على إهانة، أو انتقاماً من شانئ. وإنما هي التجلّي النفسيُّ العفويُّ للمُعْتَقد الفكري الراسخ رسوخَ الإيمان المطلق. والدليلُ على ما نزعم أن أبا حازم بقي يردِّد الأقوال والمواعظ والحكم المنطوية على هذه المشاعر ونظائرها حتى اللحظة الأخيرة من حياته. قال الإمام الذهبيُّ[٤]: «روى أبو نباتة المدني، عن محمّد بن مُطَرِّف، قال: دَخَلنا على أبي حازم الأعْرج لمَّا حضره الموتُ، فقلنا: كيف تجدُكَ؟ قال: أجدني بخير راجياً الله، حَسَنَ الظنِّ به. إنه والله ما يستوي مَنْ غدا أوراح يعمُر عقد الآخرة

(١) غلبتهم.
(٢) جرأة.
(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٩٨.
(٤) سير أعلام النبلاء ٦/ ٩٩.

لنفسه، فيقدمها أمامه قبل أن ينزل به الموتُ حتى يقدمَ عليها، فَيقومَ لها، وتقومَ له، ومَنْ غدا أو راحَ في عقد الدنيا، يعمرها لغيره، ويرجعُ إلى الآخرة، لا حظَّ له فيها ولا نصيب».

وخلاصةُ الرأي في مشاعر الكاتب أنها من النمط العميق الرزين لا من النمط الأهوج المتقلِّب، وأنها لرسوخها وهدوئها تحولت من استجابة سريعة للأحداث الطارئة، وردٍّ مرتجل على الإثارة العارضة إلى حالة نفسية ثابتة، وموقف عاطفيّ ناضج، يحدد لأبي حازم ما يحبُّ وما يكره، وما يسيغ وما يمجُّ على ضوء ما اعتقد، لا ردّاً على ما وقع، وهذا الضربُ من العواطف لا يُؤتاه إلّا أصحابُ النفوس الكبيرة.

هـ) الطبع والاسترسال

نغلو إذا ادَّعينا أن أبا حازم- وهو فارسيُّ الأب ورومييُّ الأمّ- فُطِر على ما فُطِر عليه بلغاء العرب الأفذاذ من فصاحة اللسان، ونصاعة البيان، وجزالة اللغة، فالدخيلُ لا يُقرن بالأصيل. ونغلو كذلك إذا ادَّعينا أنّ دمَ الكاتب مِداده، فإذا كتب اختضبت كتابتُه العربية بدمه الأعجمي. إن عروبة الأسلوب تتجلَّى فيما يجري به اليراع على الطِّرْس. لا فيما يترقرقُ في العروق. وأبو حازم الأعرج- كما يبدو من رسائله- أكبَّ على دراسة العربية حتى ثقِفها، وحفظ من الكتاب والسنة والشعر والخطب والقصص والأمثال ما جعلَه يُتقن العربية إتقاناً، يرقى بالتطبع إلى الطبع، حتى غدا كالعرب الأقحاح. كان إذا ترسَّل استرسل، وإذا استرسل لم يتريثْ ليعيد النظر فيما كتب، لثقته بملكته وصنعته، ولإيمانه بأنه لا يعيا بالإفصاح عن معنى، ولا يجري قلمُه بغير الفصيح من اللفظ، وبأنه قبس طرائقَ التعبير من العرب الفصاح، فنسجَ على منوالهم في تقصير الجمل كقوله: «قد جادلتَ الناس، فجَدلتَهم، وخاصمتهم فخصمْتَهم». فإذا اضطر إلى تطويل العبارات خلعَ على ما تجاور منها ظلالاً من التوازن والسجع، ليخفيَ ما في الإطالة من ملالة، كقوله: «فما أخلقك أن يُنوَّه باسمك غداً مع الجَرَمة، وأن تُسأل عما أردتَ بإغضائك عن الظلمة».

واقتباسه ما اقتبس من أساليب القدماء لم يطمس أثر الصنعة، ولم يقوّم بعض الالتواء في بعض التراكيب ولم يبرئ عباراته المطولة من بعض العثكلة،

إذ ازدحمت في طائفة منها حروف الجرّ، وتداخلت الضمائر تداخلاً، يحمل القارئ في بعض الأحيان على أن يمضغ الجملة بلسانه، وأن يديرها في ذهنه قبل أن يسيغها، ويمضي منها إلى ما بعدها، كقوله في آخر الفقرة الثامنة من الرسالة: «وجاه يجريه الله على يدي أعدائه لأوليائهم، ومقة[١] يقذفها الله في قلوبهم لهم، فيعظمهم الناس تعظيم أولئك لهم، ويرغب الناس فيما في أيديهم كرغبة أولئك فيه إليهم».

ويغلب على ظننا أن تطويل الجمل، وسربلتها بالضمائر المتداخلة والظروف وحروف الجر سمةٌ عامَّةٌ اتسمت بها رسائلُ الكتاب المحترفين- وأكثرهم أعاجمُ لا عرب- ومنهم شيخُ الكتَّاب عبد الحميد بن يحيى. قال في رسالته إلى الكتاب[٢]: «... إن العيبَ إليكم -معشر الكتاب- أسرعُ منه إلى الفراء، وهو لكم أفسدُ منه لها.فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه الرجلُ يبذُل له من نفسه ما يجبُ له عليه من حقه». وسبب هذه السمة من الاسترسال المطول، والأسلوب المفصل المسربل طغيان الصنعة على الطبع، والخبرة على الفطرة، وتوهم المحترفين من الكتاب الرسميين أن البلاغة الإطناب لا الإيجاز. والعرب لم يؤثروا شيئاً إيثارهم جوامع الكلم، ولم يطربوا لشيء طربهم للمثل السائر، واللمحة الدالة.

تكلَّم ربيعةُ بن أبي عبد الرحمن يوماً فأسهبَ، وأعرابيٌّ ينظر إليه، فظنَّ أنه قد أُعجب بكلامه. فقال له: ما تعدُّون البلاغةَ فيكم يا أعرابيُّ؟ قال: خلافَ ما كنتَ فيه منذُ اليوم!

و) الأسلوب الخطابي

يبدو أن أبا حازم أدركَ ما أدركه الأعرابيُّ. فأطالَ في بعض الجمل ولم يُسْرف، واسترسل ولم يُمْعن، لكيلا يُفضيَ الاسترسالُ إلى الإملال. فراح يُناقل بين الأسلوب المرسل والأسلوب الخطابيّ مناقلة رشيقة، تبثُّ الحياة في التراكيب، وتُذهب السأم عن القارئ، والرتوبَ عن الأسلوب، وتضمِّخ المعانيَ الذهبية بعواطف النفس.

---

(١) محبة.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٢/ ٥٣٦.

ألحَّ على أن يواجه المرسَلَ إليه بكاف الخطاب من البداية إلى النهاية، وشفَعَ الخطابَ بالأمر: «انظرْ لنفسك وحاسبها حسابَ رجل مسؤول...» ونهاه وقوَّى النهيَ بالتوكيد: «ولا تحسبن الله راضياً». ولم يغفل القسم: «والله ما قمت لله مقاماً واحداً...» وأكثر من التعجُّب إكثاراً نفَّس به عمَّا في نفسه من سخط وحيرة، ودعا به المخاطب إلى الاعتبار والارتداع: «فما أيسرَ ما عمروا لك!!.... وما أقلَّ ما أعطوك..» ونبَّه الزهريَّ على هفواته بأسئلة متعاقبة أرسل بعضها بلا أجوبة: «انظرْ أيَّ رجل تكون؟...سألك عن نعمة الله كيف رعيتها؟... وعن حجته عليك كيف قضيتها؟...» وأتبع بعضَ الأسئلة أجوبتها: «فانظر هل ابتلوا بمثل ما ابتليت به؟ بل جهلت ما ابتليت به...».

ولعلَّ أجودَ ما في الرسالة التدفقُ العفويُّ في الترسّل، والزهدُ في أدوات الربط، وتجاور الجمل المتنوعة التراكيب، وإزجاؤها على السجيَّة، كأنها حكم وأمثالٌ عميقة الدلالات، إنسانية الظلال، مضمخة بأنبل المشاعر، ملونة بأجمل الإيقاعات، لتعدُّد أساليبها، وتأليفها بين الخبر والإنشاء، على النحو الذي تجلَّى في بداية القسم السادس من الرسالة: «إنكَ لسْتَ في دار مقام، قد أُوذنت بالرحيل، ما بقاءُ المرء بعد أقرانه؟ طوبى[1] لمن كان في الدنيا على وجَلٍ! يا بؤسَ مَنْ يموت وتبقى ذنوبهُ بعدَه! إنك لم تُؤمَرْ بالنظر لوارثك على نفسك، ليس أحدٌ أهلاً أن تردفه على ظهرك..»

ز) توضيح بعض الأفكار بالتصوير

ليس في الرسالة ما يدُّل على أن أبا حازم كان كلفاً بالتصوير، أو معنياً بالجمال، أو حريصاً على إدهاش القارئ بالفن المتقن. لقد ذهبت الأفكار بالحظِّ الأوفى من رسالته، لأنه كتب ما كتب ليقنع نديداً من طبقته في العلم، وإن لم يكن من طبقته في الزهد. ولكي يصرفه عمَّا استجاز لنفسه حينما وادع منَ لا تجوز موادعته، وراح يتَّجر بهذه الموادعة ليربح الدنيا ويخسر الآخرة. ولَمَّا كان نديدُه يساويه في العلم أو يبزُّه، فإن اعتماده

(١) حُسنى، خير.

على الدين والعلم والعقل قد لا يضع بين يديه من الأفكار والحجج ما يفوق أفكار الزهري وحججه، ولهذا لجأ أبو حازم إلى تكبير الفكرة برسم الصورة، وتضخيم الحجة بتجسيم المعنى، فصوَّر خصمه تصويراً ساخراً لينفره من بني أمية،فإن لم يزدجر فإن هذه الصور تنفّر منه الناس. جعله مرة كالحديدة التي تدورُ حولها رحى الحكومة، وهي تطحنُ بالأباطيل حقوق الأمة، وثانيةً جعله جسراً يعبر عليه الأمويون من الهدى إلى الضلال، وثالثة جعله سلماً يرتقونه ليحقِّقوا بارتقائه مآربهم غير المشروعة، فقال: «جعلوك قطباً، تدور رحى باطلهم عليك، وجسراً يعبرون بك إلى بلائهم، وسلّماً إلى ضلالتهم».

وفي القسم السادس من الرسالة صوَّر دين الزهريّ رجلاً مريضاً يحتاجُ إلى علاج، فقال: «داوِ دينك فقد دخله سقمٌ شديد».

وفي القسم السابع رسم للزهري صورة أخرى إذْ جعله بئراً سحيقة الغَوْر، وبحراً عميق القَعْر، يغرق فيهما المخدوعون بعلمه. وعلى هذا النحو تجدُ أنَّ صور أبي حازم غيرُ مقصودة لذاتها، وإنما هي مقصودةٌ لما تجسِّمه من المعاني المجرَّدة، وتوضحه من المواقف التي قد يُخْدَع بها الناس.

ح) إغفال بعض الرسوم

الرسالةُ- كما رواها ابنُ عساكر- لا تلتزمُ كلَّ ما التزم كتاب الرسائل في العصر الأموي من رسوم، فإمَّا أن يكون أبو حازم قد التزمَ ما التزموه، ثم جاء الرواةُ، فأسقطوا مازعموا أنه من القُشور، وأثبتوا اللُّباب، وهو نصُّ الرسالة. وإمَّا أن يكون الكاتبُ قد هجم على غرضه بلا مقدِّمات، تواضع عليها لِداتُه من الكتاب الرسميين. فأنت لا تجدُ في بداية الرسالة ما نصَّ القرآن الكريم على وجوب البدء به من البسملة حينما قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٢٧/ ٣٠]. ولا يُعقل أن يبدأ هذا التقيُّ الورعُ المنقطع للعبادة كتابه مبتوراً، ويرسله إلى فقيه من طبقته في العلم، أو من طبقة تعلو طبقته، وهو بلا بسملة ولا حمدلة. ولهذا فالراجحُ عندنا أن الإسقاطَ من إغفال الرواة، لا من إهمال الكاتب. ولا تجد كذلك اسم المرسِل واسم المرسَل إليه، وإنما تجدُ البدءَ بالدعاء للزهريّ، ومخاطبته بكنيته «أبي بكر» فإن أحسنت الظن

قلت: مخاطبةُ الرجل باسمه أعرف، وبكنيته أشرف، والزهريُّ كان علماً في زمانه، فتشريفُه أولى من تعريفه. وإن أسأتَ الظنَّ عُدت إلى اتهام الرواة بالإغفال. والرسالة أغفلت تاريخ الكتابة، واكتفت في الخاتمة بالدعاء للشيخ والسلام عليه، ولعلّ هذا الإغفال ناجم عن الاعتزال؛ لأن أبا حازم كان قد اعتزل دواوين الدولة، فلم يتعلَّم رسوم الكتاب الرسميين.

obeikandl.com